

The Release Of The Spirit

By H.H. Pope Shenouda III



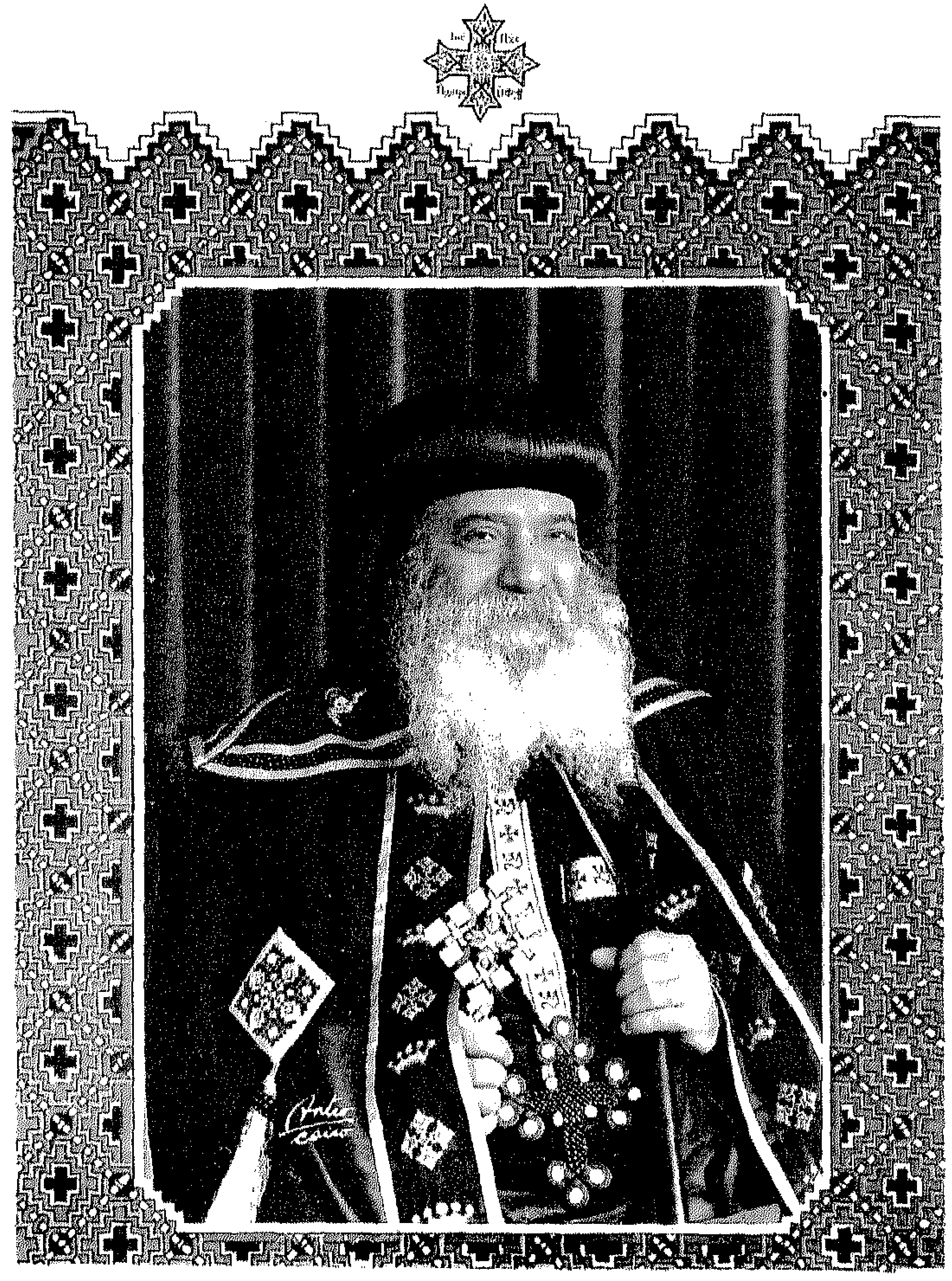
البابا شنوده الثالث



The Relese of The Spirit

8th Reprint — الطبعة الثامنة
Feb. 1993 — فبراير ١٩٩٣

الكتاب : إنطلاق الروح .
المؤلف : قداسة البابا شنوده الثالث .
الناشر : مجلة الكرازة .
مجلة مدارس الأحد [بتصريح خاص من صاحب القداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث] تقوم بنشر وتوزيع الكتاب (مع الاحتفاظ بشكل الغلاف القديم) بالنسبة لمكتبة المجلة .
الطبعة : الثامنة
المطبعة : الأنبا رويس (الأوفست) ـــ العباسية ـــ القاهرة .
رقم الإيداع ٣٨٧٩ / ٨٣
الترقيم الدولي ٤ — ٠٠ — ١٠٧٥ — ٩٧٧



قداسة البابا المعظم الأنبا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وسائر أقاليم الكرازة المرقسية

(الـ ١١٧)

قصة هذا الكتاب

بدأ حياته كمجموعة مقالات كتبتها فى مجلة مدارس الأحد ، من سنة ١٩٥١ بعنوان [إنطلاق الروح] ، وأنا رئيس تحرير لهذه المجلة قبل رهبنتى ...

ثم نشرت إدارة المجلة هذه المقالات سنة ١٩٥٧ فى كتاب . وأضافت إليها قصائد من الشعر سبق نشرها فى المجلة أيضاً .

وكان هذا أول كتاب مطبوع يُنشر لى . وقد منحه الرب نعمة فى أعين الكثيرين ، فأعيد نشره مرات .

وفى الطبعة الرابعة أضيفت إليه بعض تأملات وقصائد كتبتها وأنا راهب قبل سيامتى أسقفاً ... مع مقدمة هى فى واقعها مقال آخر فى إنطلاق الروح .

وفى الطبعة الخامسة أضيفت مقدمة أخرى ، عن إنطلاق الروح
وترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية تحت عنوان :

The Release of The Spirit .

ها هى ذى الطبعة السادسة بين يديك .
ونرجو فى الطبعة السابعة ــ إن أحيانا الرب وعشنا ــ أن نضيف مقالات أخرى عن إنطلاق الروح أيضاً .

البابا شنوده الثالث

*

الانطلاق من معرفة الخطية

ان تحدثنا عن انطلاق الروح ، فلعله يقف امامنا هذا السؤال

من اى شيء تنطلق الروح ؟

ونجيب بأن الروح وهى على الأرض ، تجاهد لكى تنطلق من اشياء كثيرة ، سوف يحدثك عنها هذا الكتاب ..

غير أن هناك شيئا آخر مهما حاولت الروح أن تنطلق منه على الأرض ، فلا أظن أنها تستطيع ! ... ربما الانطلاق منه هو احدى المتع التى ننالها فى الأبدية .. فما هو هذا الشيء ؟ انه :

الانطلاق من معرفة الخطية

عندما خلق الله الانسان الأول ، خلقه بسيطا نقيا لا يعرف خطية على الاطلاق ، ولا تفاصيل الخطايا ، ولا اسماءها ... كان كذلك ، قبل أن يأكل من شجرة معرفة الخير والشر ... كان فى براءة الأطفال ، وربما أكثر ...

ولذلك حينما اغريت حواء من الحية ، ما كانت تعرف ...

كذبت عليها الحية وقالت « لن تموتا » ... وقالت « تصيران كالله ... » (تك ٣ : ٥) . وحواء ما كانت تعرف أن هناك شيئا اسمه الكذب ... وما كانت تشك فى صدق الحية ، لأنها ما كانت تعرف الشك ...

كان آدم وحواء لا يعرفان سوى الخير فقط . أما الشر ، فما كان يعرفانه ... ولكنهما لما اكلا من الشجر دخلتهما معرفته

دخلت الى الانسان معرفة جديدة ، هى معرفة الخطية

بل معارف اخرى عديدة ، عكرت صفو النقاوة الطبيعية الأولى ، ينطبق عليها قول الحكيم « الذى يزيد علما ، يزيد حزنا » (جا ١ : ١٨) .

★ شكرا لابينا قداسة البابا المعظم فلقد آثر اهداء ابنائه هذه الافتتاحية.

ولعل أول شيء عرفه آدم ، أنه عرف أنه رجل وأن حواء امرأة ، وبدأت معرفة الجنس تدخل الى ذهنه ، ثم الى مشاعره · وعرف أن هذا شيء يخجل منه ، فيبدأ يغطى نفسه · ثم عرف الخوف ، فبدأ يختبيء وراء الاشجار ···

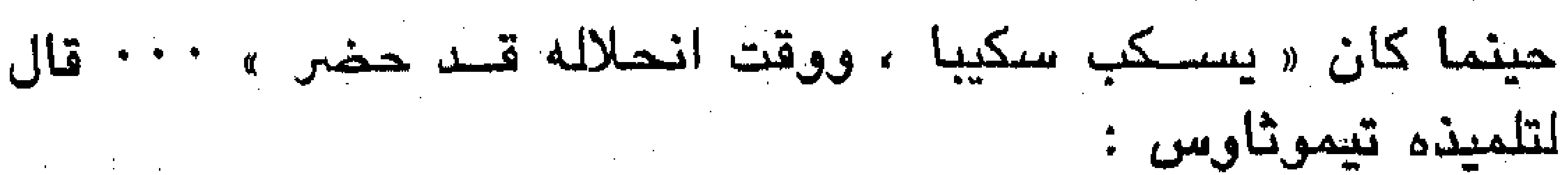
وبمرور الوقت بدأ الانسان يعرف خطايا عديدة جدا

واصبحت هذه المعرفة راسخة فى ذهنه ، تثير عليه حروبا روحية فى بعض الأوقات · وان لم يقع فى هذه الخطايا ، قد يقع فى ادانة غيره عليها ··· واصبح الانسان يعيش فى ثنائية الخير والشر ، الحلال والحرام ···



فمتى يتخلص من هذه الثنائية ؟ ومتى يرجع عقله الى نقاوته ؟ ومتى تزول من ذهنه معرفة الشر ·· سواء أكانت وصلت اليه عن طريق العقل ، أو عن طريق الخبرة والممارسة؟ متى يتخلص من «تذكار الشر الملبس الموت» ؟ ··

لا أظن ذلك يحدث على الأرض اطلاقا ، انما يحدث فى الأبدية ، حسبما قال القديس بولس الرسول ،



حينما كان « يسكب سكيبا ، ووقت انحلاله قد حضر » ··· قال لتلميذه تيموثاوس :

« وأخيرا قد وضع لى اكليل البر ··· » (٢ تى ٤ : ٨)

اخيرا سيتكلل الانسان بالبر ··· البر الذى لا يعمل خطية ، والبر الذى لا يعرف خطية ·· يتكلل بالقداسة التى بدونها لا يعاين أحد الرب ··· ولكن متى ؟ يجيب الرسول مكملا حديثه عن اكليل البر « الذى يهبه لى فى ذلك اليوم الرب الديان العادل · وليس لى فقط ، بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضا » ··

اكليل البر هذا ، هو الشهوة التى تنطلق اليها الروح ...

أما على الأرض ، فاننا فى كل يوم نخطىء ، وفى كل يوم نحتاج الى توبة . ولا يوجد انسان بلاخطية ، ولو كانت حياته يوما واحدا على الأرض ...

متى ننطلق حقا من معرفة الخطية ؟ ولا نعرف الا الله وحده ، وما يحيط به من نور ، ليست فيه ظلمة البتة ... سيكون ذلك حينما نلفظ ثمرة معرفة الخير والشر التى أكلها أبوانا فى ذلك الزمان .

وحينئذ نعود الى رتبتنا الأولى ...

بل اننا فى الأبدية ، سنكون فى حالة أفضل من حالة آدم فى الفردوس . فآدم وحواء كانا فى حالة بر ، مع امكانية السقوط . أما فى الابدية فسوف نتكلل بالبر ، البر الذى لا توجد فيه أية امكانية للسقوط .

فان كنا سنصير فى حالة افضل من حالة الانسان الأول قبل السقوط ، فعلى الأقل سنشابهه فى البراءة والنقاوة والبساطة وعدم معرفة الخطية .

سننسى الخطية بكل صورها وكل تفاصيلها وكل ذكرياتها

ولا تبقى فى اذهاننا الا ايجابية الحياة الروحية ، فى محبة الله ، والتأمل فى صفاته الجميلة ، والتأمل فى السماويات ، وما لم تره عين ، أو تسمع به اذن ، أو يخطر على قلب بشر .

بهذا تكون الروح قد وصلت الى قمة انطلاقها

أما هنا على الأرض ، فأقصى ما تصل اليه الروح ، هو الانطلاق من سيطرة الخطية والمادة والجسد ، لكى تحيا طليقة « تعتق من عبودية الفساد ، الى حرية مجد أولاد الله » (رو ٨ : ٢١)

هل شعرت أن روحك وصلت الى هذه الحرية ؟

هذه الحرية هى انطلاق الروح ... انطلاقها من كل قيد يعوق وصولها الى الله ... وكيف ذلك ؟ هنا واتركك أمام هذه التأملات التى كتبت غالبيتها فى بداية الخمسينات ، قبل دخولى الى الرهبنة ...

شنودة الثالث

الانطلاق لمعرفة الله(*)

بقلم : قداسة البابا المعظم
الأنبا شنوده الثالث

أعترف أمامك يا رب أن اتجاهى فى الكتـابة كان ينبغى أن يتغير · وأعترف فى خجـل أمامك أننى كثيرا ما حدثت النـاس عن الفضيلة ، وقليلا ما حدثتهم عنك ، بينما ينبغى أن تكون أنت الكل فى الكل ···

غير أننى لكى أتحدث عنك ، لابد أن أعرفك · وكيف أعرفك وأنا انسان محدود ، وأنت اله غير محدود ؟! بل كيف أعرفك وأنت غير المدرك ، وغير المفحوص ، أنت النور الذى لا يدنى منه ، ولا يستطيع انسان أن يراه ويعيش ··· ؟!

ولقد حاولت أن أسـأل قديسـيك الذين عرفوك ، أو الذين عرفوا عنك « بعض المعرفة » فاقتربت الى بولس الرسول الذى صعد الى السماء الثالثة ، وسألته عنك فقال ان الذى سمعه ورآه أمور « لا ينطق بها ، ولا يسوغ لانسان أن يتكلم عنها » (٢ كـو ١٢ : ٤) · وكذلك يوحنا الحبيب الذى رأى بابا مفتوحا فى السماء ، وشاهد عرش الله ، لم يشرح لنا رؤياه الا فى رموز لا يمكن أن تعطى الصورة الذاتية للحقيقة كما هى ···

---

*) تفضل قداسة البابا المعظم وشمل أولاده بعطفه ورعايته الروحية فقدم للطبعة الرابعـة هـذا التأمل العميق الذى آثرنا أن نستهل به هذا الكتاب الثمين بعد التصدير السابق ·

وأحيانا أسـأل نفسى : أهى كبرياء منى أن أحاول أن أعرفك ، بينما ما أزال جاهلا بحقيقة نفسى ، وما أزال جاهلا بكثير من الأمور البشرية والمادية ؟ ان كنت لم أعرف كنه ذاتى ، فكيف أعرف خالق هذه الذات ؟

وان كنت لم أعرف بعد سماءك وملائكتك ، فكيف أعرف ذاتك الالهية ؟

كل ما أعرف عنك ، هو ما تكشفه لنا من ذاتك • وأنت لا تكشف لنا الا ما تستطيع ذاتنا أن تحتمله • لانك ان كشفت لنا أكثر ، ستقف طبيعتنا البشرية مبهورة فى دهش ، وقد وقف عقلها عن الفهم ، وعجزت مفرداتها اللغوية عن التعبير ، وتعترف أن ما تراه هو من الأمور التى لا ينطق بها •

وأنا أحاول فى معرفتك أن أخرج عن نطاق الكتب بكل ما فيها من عمق ، بل أن أخرج أحيانا عن حدود معرفة العقل ، لكى أعطى للروح فى انطلاقها مجالها الأوسع الذى تفوق فيه العقل بمراحل ••• ولكن روحنا البشرية محدودة ••• محدودة فى قدراتها وفى مواهبها ، وفى معرفتها ••• كما أنها تقاسى كثيرا من ضباب هـذا الجسـد المادى •••

أترانا يا رب سنعرفك اذن فى الملكوت الأبدى ؟ وسننظرك حينذاك وجها لوجه كما قال عبدك بولس ؟ أرانى حقا حائرا أمام عبارة « وجها لوجه » •

اننا فى الملكوت على الرغم من القيامة الممجدة ، وما سنلبس من أجساد نورانية روحانية ، لابد أن سنظل ـ كما نحن ـ بشرا محدودين •••

ستكشف لنا شيئا عن ذاتك لم نكن نعرفه فى العالم ، فنسر بذلك ونفرح ، ثم تكشف لنا أكثر فأكثر ، على قدر ما نحتمل •

وقد تكشف لنا أكثر فتصرخ نفس كل واحد منا وهى مريضة حبا « كفانا كفانا » •• وتظل أنت توسع فى قلوبنا ، وتوسع فى أرواحنا لنستوعب عنك المزيد ••• وتظل أنت يا رب كما أنت ••• غير محدود ••• ونظل نحن ـ كما نحن ـ على الرغم من اتساعنا ، محدودين ، نعرف عنك بعض المعرفة •••

ويطول بنا الزمن فى الأبدية ، ونحن نستمتع بمعرفتك ، نذوق وننظر ما أطيب الرب ، ونكتشف كل حين شيئا جديدا عنك ، فنتغذى بهذه المعرفة الحلوة المشبعة ولكننا لا يمكننا أن نلم بك كلك •

اذن متى نعرفك المعرفة الحقيقية ؟

يجيب ربنا يسوع ويقول « هذه هى الحياة الأبدية ، أن يعرفوك أنت الاله الحقيقى وحدك ••• » ••• اذن فمعرفتك ليست موضوع سنين أو أيام ، وانما طريقها هو الأبدية كلها ، الأبدية التى لا تنتهى •••

ان كان الأمر هكذا فى الأبدية ، فماذا نقول اذن عن جهالتنا على الأرض ؟ أحقا نحن نعرف شيئا ؟

لذلك أتوسل اليك أيها الخالق العظيم ، أن تعذرنى ان كنت أحدث الناس عن الفضيلة أكثر مما أحدثهم عنك • فذلك يرجع الى سببين :

السبب الأول : هو أننى لا أعرف • كل ما أعرفه هو أننى أصلى اليك أن تكشف لى شيئا عن ذاتك ، وما تكشفه لى أخبر الناس به ، لكى يجربوا مذاقة الملكوت على الأرض •

والسبب الثانى : هو أننى عندما أحدثهم عن الفضيلة ، انما أريدهم أن يعدوا قلوبهم لمعرفتك • أريدهم أن يرفعوا البخور

عشية وباكر على مذبح هذا القلب حتى يستحق أن تقدم عليه السرائر الالهية ٠

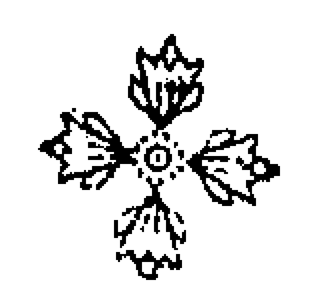
ونحن بذاتنا لا نعرف ، لكننا نريد – بنعمتك – أن نعد ذواتنا لمعرفتك ، وهذه المعرفة تأتى منك أنت ، بما تكشفه لنا ، ولا تأتى بمجهود عقولنا ، ولا حتى بمجهود أرواحنا ٠ ان كل جهاد عقولنا وأرواحنا – مع ضرورته – انما يدخل فى حقيقته تحت معنى الصلاة أو التوسل ، لكى يملأ السحاب البيت ، وتشتعل النار فى العليقة ، ويكشف الرب ذاته ٠٠٠ وحينئذ يسجد القلب فى خشوع ، ويرتل فى شكر « أعطيتنى علم معرفتك » ٠٠٠

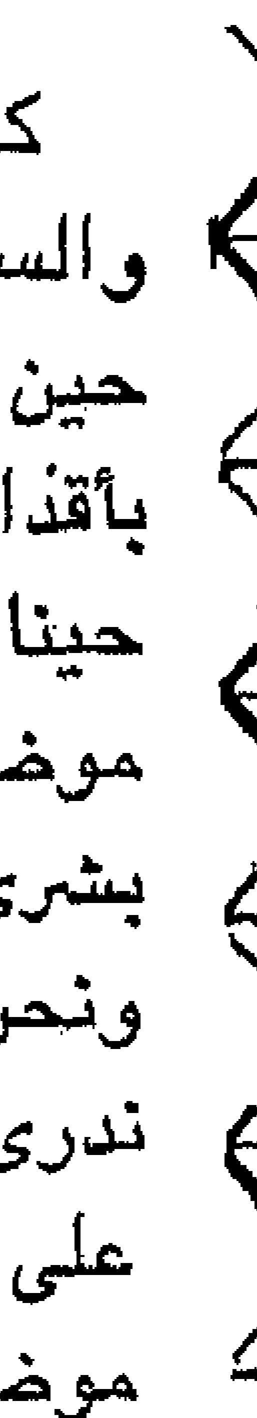
هذه المعرفة الالهية هى اللؤلؤة الكثيرة الثمن ، التى من أجلها باع التاجر كل أمواله واشتراها ٠

ولعله من الأموال التى باعها هذا التاجر ، ما نكنزه فى عقولنا من معارف بشرية متعددة تشغل كل أوقاتنا حتى لا نتفرغ لمعرفتك أنت ، وحتى لا نجلس مع مريم عند قدميك تسكب فى قلوبنا ذلك الماء الحى، الذى كل من يشربه لا يعود يعطش أيضا ٠٠٠

ليتنا نسعى الى هذه المعرفة ، ونطلبها بكل قلوبنا ، ونجدها فى داخلنا ، فى عمق أعماقنا ، حيث تسكن أنت ، وحيث هيكلك المقدس الذى تدشن يوم أخذنا المسحة المقدسة منك ٠

٢٥ ديسمبر سنة ١٩٧٣
١٦ كيهك سنة ١٦٩٠





كانت الساعة السابعة مساء ، والسكون يخيم على أرجاء المكان ، حين بدأت وأبى الراهب نضرب بأقدامنا فى رمل الصحراء ، نتمشى حينا ونقف حينا آخر ، متأملين فى موضوعات أسمى من أن يكتبها قلم بشرى ... وقد طال بنا التجوال ونحن لا ندرى ، أو نحن لا نود أن ندرى ، حتى استقر بنا المطاف أخيرا على عتبة الدير ، فجلسنا نناقش موضوع :

انطلاق الروح

التحرر من القيود

رواسب وقيود :

لست أعنى انطلاق الروح من الجسد ، ذلك المعنى الذى قصده سمعان الشيخ حين قال : « الآن يا رب أطلق عبدك بسلام حسب قولك ·· » انما أعنى انطلاق الروح وهى ما تزال فى الجسد ، انطلاقها من كل ما يحيطها من رباطات وقيود ، حين يبدأ السلام الكامل ويعيش الانسان فى حرية أولاد الله ·

أترى يا أخى العزيز الطفل بعد عماده وروحه حرة طليقة كما أوجدها الله فيه ، ثم أتعرف ماذا حدث لها ؟! لقد أرسب عليها العالم والعرف والبيئة رواسب عدة ، وتقيدت من جراء ذلك وغيره بقيود كثيرة تعوق انطلاقها الى حيث تريد أن تذهب لتتحد بالله وتثبت فيه · وكل ما يبحث عنه أولاد الله هو انطلاق الروح من كل هذا : انطلاقها من قيود العالم والبيئة ، وانطلاقها أيضا من قيود الحس والحكمة البشرية ··

وهنا التفت الأب الراهب وقال : هل يحسب البعض أن السيد المسيح عندما قال : « ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الأطفال لن تدخلوا ملكوت السموات » كان يقصد « ان لم تصغروا وتصيروا مثل الأطفال ·· » كلا · بل كان يود أن يقول : « ان لم تكبروا فى الروح جدا حتى تصيروا مثل الأطفال فلن تدخلوا ملكوت السموات » ·

قيود الحس :

وقف أمام القديس مقاريوس الكبير راهب حاربه البر الذاتى حتى ظن أنه تخلص من الزنا وحب المال والغضب ، فسأله الأب القديس عما يشعر به اذا رأى امرأة : فقال أعرف أنها امرأة ولكنى

أهرب لئلا أشتهيها • فسأله أيضا عن شعوره اذا رأى مالا ملقى فى الصحراء ، أيستطيع أن يفرق بينه وبين الحصى ، فأجاب بأنه يستطيع ذلك ولكنه يمنع نفسه من محبة المال ، وسأله القديس ثالثا عن شعوره اذا أهانه أحد ، فأجاب بأنه يحس أنه أهين ولكنه لا يبيت الغيظ فى قلبه • وهنا التفت القديس الى الراهب وأخبره أنه ما يزال تحت الآلام ، وأنه فى حاجة الى جهاد أكثر ، وبدأ يعظه ••

انها قيود الحس يا صديقى القارىء التى تجعل المرء يفرق بين الرجل والمرأة المتقدمة فى السن والفتاة الشابة ، وبين الفتاة « الجميلة » و « غير الجميلة » •

انها قيود الحس أيضا التى تجعله يفرق بين النقود والحصى •• وماذا اذن عن الاهانة والمديح ؟ •

ذهب أحد الرهبان الى القديس مقاريوس وطلب منه نصيحة ، فأمره القديس أن يذهب ويمدح الموتى فذهب ومدحهم فلم يرد عليه منهم أحد ، فأمره القديس أن يذهب ويشتد عليهم فى القول ، ففعل ذلك فلم يرد عليه أحد •

فقال القديس للراهب : وهكذا أنت ما دمت قد مت عن العالم فيجب أن تشبه هؤلاء الموتى ، لا تتأثر فى شىء ، وانما سيان عندك ان مدحك الناس أو ذموك ••

وفى احدى المرات أحضر أحد الأثرياء هبة مالية الى الدير لتفرق على الرهبان ، ولكى يقدم رئيس الدير لهذا الثرى عظة عملية ، وضع المال جانبا وأمر بدق الناقوس فاجتمع الرهبان ، فطلب اليهم الأب الرئيس أن يصنعوا محبة ويأخذوا ما يحتاجونه من هذا المال ، ولما نظر الرهبان الى الذهب كما ينظرون الى الحصى ولم يأخذ أحد منهم شيئا رغم الالحاح الشديد ، تأثر الرجل الثرى جدا ، وطلب أن يترهب ••

ان العالم يا أخى الحبيب والجسد أيضا قد أرسب على احساساتنا رواسب عديدة كان من نتائجها أن أشياء عالمية كثيرة

مادية وجسدية أصبحت تبدو لنا فى صورة أجمل من غيرها وأكثر جاذبية وأعمق أثرا فى النفس · وعندما تسمو الروح ، وعندما تنطلق الى حد ما مما يعرقل طريقها من القيود ، عند ذلك سيرقى احساسها جدا ، أو قل ستنطلق من الحس العالمى ، وتفهم الأمــور بادراك آخر روحى ·

هل اذا طال بك السفر بعيدا عن أسرتك ، ثم قابلتهم بعد هذا الفراق الطويل فعانقوك فى محبة وفى شوق زائد ، هل وسط تلك المحبة التى سبحت فيها روحك ، ستحس أن أباك الرجل يختلف عن أمك المرأة ، وأخيك الفتى ، وأختك الفتاة · وهل عامل الانقاذ فى الحرائق أو حوادث الغرق يحس أن الجسم الذى يحمله منقذا اياه من الهلاك ، هو جسم فتى أو فتاة ، أو رجل أو امرأة ؟! كلا بل أؤكد لك أنه لو أحس شيئا من هذا لعرض نفسه للموت هو ومن يعمل على انقاذه ·

الا ترى اذن أن الروح تسمو على الحس ، وأن هناك أوقات يتعطل فيها الحس كليا أو جزئيا لانهماك الروح فيما هو أعظم ؟ ·· وهكذا أنت فى حياتك الروحيــة عليك أن تتخلص بقــدر الامكان من قيود الحس · وعندئذ ستنظر الى الأمور بمنظار آخر : سوف لا تحاربك الشهوة ، شهوة العين أو شهوة الجسد أو شهوة المال أو شهوة النساء أو تعظم المعيشة · بل تكون كملائكة الله فى السماء ، تنظر الى كل شىء بتلك « النظرة البسيطة » التى قال عنها السيد المســيح فى عظته على الجبل : « ان كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيرا » ··· (متى ٦ : ٢٢)

على أن هذه الأفكار لم تكن موضوع الحديث بين أبى الراهب وبينى ، فقد كنا نتكلم فيما هو أعمق من هذا ، فى موقف الحس عند تفهم الالهيــات والتأمل فيها : ان الاحســاس الجســدى جســدى ومحدود لذلك فهو لا يستطيع أن يفحص الله الروح غير المحدود · ثم ان الحس البشرى عرضة للخطأ ، وكثيرا ما يخطىء فى التمييز بين الخطأ والصواب ·

لقد رجع التلاميذ الى السيد المسيح فرحين وقالوا له : « حتى الشياطين أيضا تخضع لنا باسمك » فرد عليهم السيد : « لا تفرحوا بهذا » (لو ١٠ : ١٧ ، ٢٠) اذ أن احساسهم كان خاطئا ٠

أنظر أيضا الى القاتل الذى ثأر لنفسه أو انتقم لشرفه ، ألا يغمره احساس بالرضى كأنه أتى عملا جليلا ٠ انه حس خاطىء ٠ وأنت كذلك يا أخى المحبوب قد تراودك فى صلواتك وأصوامك وخلواتك وتأملاتك احساسات كثيرة : امتحنها جيدا فقد تكون احساسات بشرية غير سليمة ٠٠٠ وحاول أن تطلق روحك من قيود الحس ٠

بقى أن أقول لك الاحساس بالعالم وموجوداته يتعطل عند الاستغراق فى الالهيات ٠ كانت حنة تصلى فى الهيكل ٠ وكانت منسكبة النفس أمام الله فلم تشعر بما يدور حولها حتى أن عالى الكاهن حسبها سكرى فقال لها : « الى متى تسكرين ٠ قومى انزعى خمرك عنك » ٠ (اصم ١ : ١٣ ، ١٤)

وهكذا أنت : ان كنت منصرفا بكليتك الى الصلاة أو التأمل فسوف لا تشعر اطلاقا بما يدور حولك ٠ قد يتكلم البعض الى جوارك وقد تقوم ضجة ٠ وقد تتهادى مناظر كثيرة ، وأنت لا تدرى عن كل ذلك شيئا لأنك منهمك فى أمور أخرى فى عالم الروح ٠ ان حسك معطل نسبيا لأن روحك هى التى تعمل ٠ هل يقول البعض عن هذا انه اختطاف الروح ؟ لا أدرى ، ولكنى أعلم أن القديس يوحنا القصير كانت تمر عليه فى تأملاته فترات يتكلم فيها الناس اليه فلا يسمع صوتهم ولا يدرى ماذا يقولون ، ويسأله السائل مرة أخرى فيجيبه القديس « ماذا تريد يا ابنى ؟ » ويكرر السائل طلبه ولا يسمعه القديس أيضا ٠ لأن روحه منشغلة بأشياء أخرى أهم وأعمق وألصق بالسمع والذاكرة ٠ وكانوا يسألونه أحيانا أسئلة فيجيبهم عنها بتأملات لاهوتية لا علاقة لها بما يسألون عنه ، لأنه لم يسمع ما قالوه ٠ كانت روحه منطلقة من الحس ٠٠٠

الانطلاق من « الحكمة البشرية » أيضا :

والآن ، ماذا أقول ؟ هل أقول أن تنطلق الروح من نطاق الحكمة البشرية أيضا ؟ يخيل الى أنني أود أن أقول هذا « ألم يجهل الله حكمة العـالم » « لأن الرب يعلم أفكار الحكماء أنها باطلة » « لأن حكمة هذا العالم هى جهالة عند الله » لأنه مكتوب « الآخذ الحكماء بمكرهم » (١ كو ١ : ٢٠ ، ٣ : ٢٠ ، ١٩) ٠

على الرغم من أن العقل البشرى – منذ وجوده – قاصر ومحدود ، الا أنه كان فى حالة أفضل يوم خلق الله العالم ونظر الى كل ما عمله فاذا هو حسن جدا ٠٠٠ ولكن الخطية والعالم وما ورثناه عن القدامى من أفكار وأبحـاث وخبرات وعـادات وتقاليد ونظم وشكليات ٠ كل ذلك أرسب على العقـل البشرى رواسـب كثيرة حتى أصـبح – زيادة على قصـوره – معرضا للخطـأ فى كثير من أحكامه ٠ وهكذا لا يستطيع وحده أن يفهم الله أو يفحصه ، والذين يظنون أنهم حكماء وعقلاء ، ويعتمدون على حكمتهم وعقلهم هم أبعد الأشخاص عن الروحيـات والالهيات ٠ وهكذا قال معلمنـا بولس الرسول : « وكلامى وكرازتى لم يكونا بكلام الحكمة الانسانية المقنع بل من الله ٠٠٠ لا بأقوال تعلمها حكمة انسانية بل بما يعلمه الروح القدس قارنين الروحيات بالروحيات » (١ كو ٢ : ٤ ، ١٢ ، ١٣) ٠

أرأيت يا أخى الحبيب بطلان الحكمة البشرية ٠٠٠ فهل يلغى الله الحكمة على وجه العموم ، كلا ٠ بل يؤيدها ٠ وهكذا يقول معلمنا بولس فى نفس رسالته : « لكننا نتكلم بحكمة بين الكاملين ، ولكن بحكمة ليست من هذا الدهر ولا من عظمـاء الدهر الذين يبطلون ، بل نتكلم بحكمة الله فى سر » ٠

لذلك اذا أردت لروحك أن تفهم مقاصـد الله ، فأطلقها أولا من حكمتك البشرية ، وقف أمام الله جاهلا فارغا من كل علم وفهم ، حينئذ ستمتلىء بالمعرفة ، المعرفة الروحية الكاملة ، وليست المعرفة البشرية القاصرة « لأن الروح يفحص كل شىء حتى أعماق الله »

أليس هذا ما يعنيه معلمنا بولس الرسول اذ يقول : « ان كان أحد يظن أنه حكيم بينكم فى هذا الدهر فليصر جاهلا لكى يصير حكيما » · (اكو ٣ : ١٨)

تقدم الى السيد المسيح رجل ذو يد يابسة بطلب الشفاء ، فأمر السيد أن يمد يده فمدها فصارت سليمة (متى ١٢ : ١٠ ، ١٣) · وتؤخذ هذه الحادثة دليلا على قدرة السيد وهذا صحيح ، ولكن لها وجها آخر وهو تحطيم نطاق الحكمة البشرية · لو كان هذا الرجل متمسكا بالحكمة البشرية لجادل السيد فى الأمر : « كيف أمد يدا يابسة ؟ هل اليد اليابسة تمتد · ولو كانت تمتد فما حاجتى الى الشفاء ؟ أشفنى أولا ثم أمدها » أما هذا الرجل فصار جاهلا لكى يصير حكيما · فتجاهل الحكمة البشرية التى لا تؤمن بامتداد اليد اليابسة · والتى لا تؤمن لا بانتقال الجبل من موضعه ، ولا بمشى الرجل على الماء ، ولا بعدم التفكير فى الغد ···

انها الحكمة البشرية التى جعلت الناس يضعون الله تحت المجهر هو وصفاته وتعاليمه ! · وهى « الحكمة » التى جعلت البعض يقبلون من الانجيل ومن قوانين الكنيسة ما يرونه بأفكارهم صحيحا ، ويرفضون ما لا يتفق ومنطقهم العقلى ···

أما أولاد الله فيتناولون كل شئ ببساطة وبغير تعقيد : تريدنا يا رب أن نمشى فى البحر الأحمر ؟ سنمشى اذن لأنك لابد تشق لنا فيه طريقا فلا نغرق ·

هناك أسطورة تقول ان البحر الأحمر لم ينشق عندما ضربه موسى بعصاه ، وانما انشق حالما رفع أول رجل قدمه ليضعها فى الماء : انها مجرد أسطورة ولكنها تحمل فى طياتها معنى ساميا من معانى الروح ·

أود أن أخبرك الآن أن الروحيات في الصحراء والجبل لها طابعها الذى يختلف عن طابع الروحيات فى المدينة ، فمن أهم القيود التى تتعب العابد فى المدن :

نطاق الجدران الأربع

ولقد جربت هذا بنفسى ، كنت منذ سنوات فى معسكر فى الماظه وهى بقعة صحراوية تقع على بعد أميال من ضاحية مصر الجديدة · وكنت متعودا أنا وأحد اخوتى من مدارس الأحد أن نصعد على أعلى رابية فى تلك الصحراء لنقضى وقتا فى الصلاة والتأمل · وكانت مصر الجديدة ، تلك الضاحية الفخمة فى مبانيها وشوارعها وتنظيمها وسكانها أيضا ، تظهر لنا على بعد كشىء ضئيل تافه على مرمى النظر فى خط الأفق · ولم يكن يبدو منها غير بعض اضواء بسيطة : لعاملين بسيطين هما عامل البعد وعامل الارتفاع · وكنا نشعر أن روح كل منا انطلقت من احترام الطول والعرض والارتفاع ، والفخامة والضخامة · والتنميق والتزويق ، وتساوى أمامها القصر العالى والبيت الصغير ، اذ لا يبدو شىء من كليهما · بل كنا نشعر بسعادة ولذة روحية ونحن جالسان على الرمل فوق تلك الرابية المرتفعة ، سعادة لم نجدها فى المدن فى يوم من الأيام ·

وفى عطلة من المعسكر رجعنا الى القاهرة وأقول لك الحق يا أخى الحبيب اننى انزعجت من هذه العاصمة الصاخبة · وكنت أسير فى الشوارع وفى رأسى وأذنى بركان ثائر من ضجيج الناس

وصوت السيارات والترام ووسائل المواصلات المتعددة · وعرفت وسط هذا الصخب أننى لست بقادر أن أفكر تفكيرا منتظما مرتبا متلاحقا ، كما كنت أفعل فوق الرابية المرتفعة ·

وعندما أغلقت علىَّ بابَ مخدعى ووقفت للصلاة ، لم أستطع أن أصلى ، كانت الجدران الأربع التى للغرفة بمثابة حاجز منيع يفصلنى عن التمتع بالله · وأقول لك فى صراحة اننى خرجت من غرفتى دون أن أصلى وسرت بعيدا بعيدا أبحث عن فضاء هادىء مرتفع لا أرى فيه أمامى الأبنية والمنشئات ، وتصغر فيه نواحى العمران والمدنية ، وبعد حوالى الساعة من السير وجدت مكانا فيه شىء ضئيل مما أطلب ، وهكذا رجعت الى منزلى ضيق النفس مشتاقا الى رابيتى المرتفعة مرة أخرى ···

وانقضت أشهر المعسكر ورجعنا الى العاصمة ، ووجدت نفسى مضطراً الى تعود الصلاة بين الجدران الأربع · ولكن ذكريات تلك الرابية المرتفعة ما زالت خالدة أمام عينى حتى اليوم ، ولكى أحصل على جانب من التعويض كنت ـ بعد أن انتهى من درسى فى مدارس الأحد ، أصعد واخوتى الشبان الى سطح الكنيسة المرتفعة لنلقى نظرة على القاهرة ، فنراها أيضا فى ظلمة المساء شيئا ضئيلا لا تبدو منه غير أشباح أبنية تلمع فيها تلك النقط البيضاء المضيئة ·

ان روحك يا أخى الحبيب تود أن تنطلق هى أيضا كالطير من غصن الى غصن ، تود أن تصير كالملائكة الذين يسبحون فى السماء بغير روابط أو قيود · وان لم تستطع هذا باستمرار ، فلا أقل من تهيئة فرص لها فى بعض المناسبات ···

ان هذا يجعلنى أتخيل التأمل اغزر وأوفر بالنسبة الى البحار والفلاح وساكن الجبل وساكن الصحراء · ويخيل الى أننا سنصير كذلك عندما نتخلص من نطاق الجسد ونصعد الى فوق ، حيث الله والملائكة والقديسون ·

وقد تناولت هذا الموضــوع مع أبى الراهب ، فحدثنى عن اختبار روحى آخر ، حكى لى كيف انفرد فى قلايته ثمانية وعشرين يوما فى مستهل حياته الرهبانية · قابعا بين الجدران الأربع ، لا يرى انسانا ولا يتصل بانسان ، مجاهدا فى صراع عنيف بينه وبين الله ونفسه ، وكيف كانت تلك الحقبة من الزمن فترة « غربلة » قاسية لنفسه ، استطاعت فيها الروح أن تنطلق شيئا فشيئا من قيودها الكثيرة الى الله ، وتغتصب منه الوعود اغتصابا ···

وبعد ذلك خرج الراهب من قلايته وقد تساوت أمامه الجدران واللاجدران ···

وهنا أقدم لك فى هذا الموضوع مرحلة من مراحل الروحانية أسمى وأعمق · كانت المرحلة الأولى هى التبرم بالجدران الأربع ، أما هذه فهى مرحلة عدم الاحساس بالجدران الأربع ، حيث تجلس فى غرفتك · وتستغرق فى صــلاتك أو تأملاتك أو قراءتك ، حتى لا تعود تشعر بكل ما حولك ، وانما تعيش فى عالم آخر يسمو على الحس ، لا تعرف فيه هل أنت فى غرفتك أم فى فضاء الدير ، هــل قلايتك لها جدران أم ليس لهــا ، بل أقول انك فى تلك الحــالة لا تستطيع أن تميز هل انتقلت اليك الســماء وأنت على الأرض ، أم انتقلت وأنت على الأرض الى السماء ؟ بل دعنى أهمس فى أذنك يا أخى الحبيب أن هناك أشخاصا لم يستطيعوا أن يدركوا ــ فى حالات كهذه ــ هل هم فى الجســد أم خارج الجســد كما حدث للقديس بولس الرسول ، وكما روى عن القديس يوحنا الأسيوطى والشيخ الروحانى أيضا ·

يتدرج بى هذا الموضوع ، موضوع انطلاق الروح من المكان ، الى تأمل آخر متعلق به وهو « الرؤى » ·

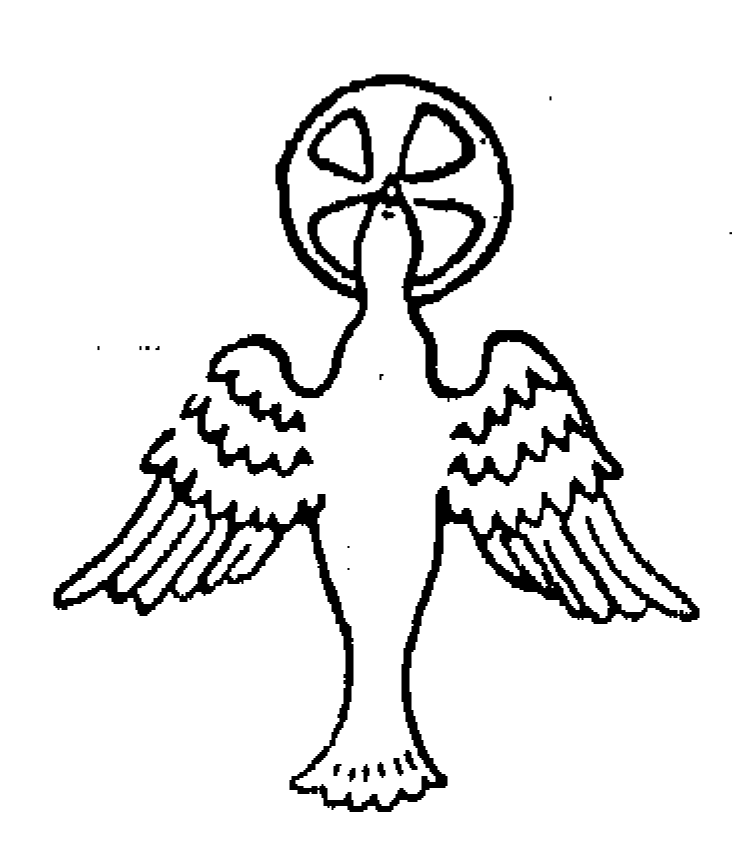
سمعنا فى هذا الأمر من قبل عن اختبارات القديسين يوحنا الحبيب والقديس بولس الرسول ، ويعوزنا الوقت ان استرجعنا

اختبارات الأنبا انطونيوس والأنبا شنوده وغيرهما من القديسين الذين انطلقوا من أماكنهم وعاشوا بالروح فى أجواء وبيئات أخرى ، رأوا فيها أشياء عجيبة لا ينطق بها ٠

انما أذكر هنا قصة رواها لى أحد أخوتنا الأحباء عن كاهن ممتلىء بالروح كان واقفا يصلى فى المذبح فلما وصل فى صلاته الى عبارة « ورفع نظره الى فوق ٠٠٠ » رفع نظره هو أيضا ، وسادت الكنيسة فترة من الصمت العميق ، ومرت دقيقة ودقيقتان ودقائق كثيرة والكاهن القديس ناظر فى صمت الى فوق فى دهشة وذهول ، وطال الوقت جدا والشعب يتأمل كاهنه المبارك فى صمت ، وبعد فترة أخفض الكاهن بصره ، وأكمل صلاته فى عمق وحرارة دون أن يحس فترة الصمت التى مرت به ٠ ولما أخبره أحد خواصه ـ بعد القداس ـ بما حدث وطلب منه ايضاح الأمر ، اضطرب ولم يجب ، ولما كثر عليه الالحاح قال انه نظر الى فوق فاذا بالكنيسة وكأنها بلا قبة ولا سقف ، واذا به يتأمل سلما طويلا يصل المذبح بالسماء ٠ فتأمله لحيظات كأنها جزء من الدقيقة ثم أكمل صلاته ٠٠

يتحدثون بعد ذلك عن الرهبنة كطريق الى الخدمة ، وما أرى الرهبنة الا طريقا الى السماء تساعد فيه الخلوة والتأملات والجهاد المستمر على دوام انطلاق الروح حتى تتحد بالله ٠

يخيل الى يا أخى الحبيب أن هناك أشياء أخرى لأقولها لك فى هذا الموضوع ٠



لم أكن فى هذه المرة سائرا فى الصحراء ولا جالسا على عتبة الدير ، وانما كنت مع أبى الراهب أمام مغارته فى الجبل ، نتابع حديثنا الماضى عمن هو :

أعظم من السماء والأرض

الروح التى تود أن تنطلق يا أخى الحبيب هى الروح التى تدرك تماما قدر ذاتها ، والتى تعرف أنها عظيمة بهذا المقدار كله ، وانها أكبر وأكبر جدا من أن يذلها الجسد أو تذلها البيئة أو يذلها الشياطين ٠

ولكى أعطيك فكرة عن هذا الأمر ، يليق بنا جدا يا حبيب الله أن نبحث الأمر معا ، ونتذكر الماضى والحاضر والمستقبل أيضا ، حتى ندرك أية قوة مخبأة فينا ونحن لا ندرى ٠ نتذكر أن الانسان هو المخلوق الوحيد الذى خلق على صورة الله ومثاله (١) ، فان طلب اليك أن تعرف ذاتك ، فقل فى قوة وثقة « أنا صورة الله » ٠

وأنت ــ كصورة الله ــ قد كتب لك الخلود ٠ فمن المحال أن تفنى ٠ وهل يعقل أن يفنى شخص على مثال الله الخالد ؟! اذن فأنت أعظم من الجبل الشامخ ومن البحر الخضم ، أعظم من الشمس الملتهبة ومن القمر المضىء ٠ أعظم من الصحراء الواسعة ومن السهل الفسيح ٠ أعظم من الذرة المحطمة ومن كل قوات الطبيعة على

---

١) تك ١ : ٢٧ ٠

الاطلاق · فكل هذه الأشياء تزول ، لأن السماء والأرض تزولان كما يقول الكتاب (٢) · وأما أنت فلك الحياة الأبدية كما وعدك السيد المسيح (٣) أنت أنت يا صورة الله ·

انت ملك الأرض وما عليها :

انت يا اخى العظيم المخلوق الالهى الوحيد ، أنت – من دون الأرض وما تحتها وما عليها – المخلوق الذى أعطاه الله – كما أعطى الملائكة – موهبة العقل وموهبة النطق ، والذى أعطى أن يعرف الله ويتعبد له · أنت الذى جعل الله مسرته فيك ، وهذه الطبيعة كلها التى تظنها أحيانا أعظم منك ، ما خلقها الله الا لتكون فى خدمتك ، فتسخرها جميعا حسب ارادتك ووفق سلطانك ··

وهكذا خلق الله أولا كل شىء ، ثم أوجدك أخيرا ، لتكون ملكا على كل ما خلقه من قبل ، تكون ملكا على طيور السماء وسمك البحر وحيوانات البرية وعلى كل الأرض (٤) ، أنت يا من تستضعف ذاتك وتخاف من الصقر والحوت والأسد وأشباهها ، من عبيدك الضعفاء الذين كانوا فى خدمتك فى يوم ما ··

لا تظن أنك كنت هكذا قبل الخطيئة فقط ، انما كان الأبرار فى كل العصور لهم هذه الهيبة وهذا السلطان أيضا : ان شمشون قاضى اسرائيل ضرب الشبل بيده فوقع صريعا ، ودانيال كان فى جب الأسود ولم تضره الأسود فى شىء ، ويونان ابتلعه الحوت وأخرجه دون أن يقوى على ايذائه ، والثلاثة الفتية دخلوا فى أتون النار فكانت النار بردا وسلاما ·· ومثل هذا يقال فى العهد الجديد

---

٢) مت ٢٤ : ٣٥ ·

٣) يو ٤ : ١٤ ·

٤) تك ١ : ٢٦ و ٢٨ ·

ايضا على القديس مرقص وأسـده ، وعلى القديس بولس الذى نشبت أفعى كبيرة فى يده فنفضها الى النار ولم يتضرر بشىء ردىء حتى تعجب الناس وقالوا « هو اله » (٥) انه أنت الذى أعطيت سلطانا أن تدوس الحيات والعقارب وكل قوة العدو (٦) ٠

آه يا أخى الحبيب لو عرفت قدر روحك ، هذه التى تحبسها بخطيئتك فى سجن من الذلة والجبن والخوف ، وهى ــ من وراء قضبان سجنك ــ تتطلع الى مجدها السالف وتود انطلاقا ، لو سمحت أنت لها ٠

انت المخلوق الالهى :

أنت « يا جبار البأس » مخلوق الهى ، أنت الذى قال له الله الابن اثبت فى وأنا فيك كما يثبت الغصن فى الكرمة (٧) ٠ أنت الذى يقرع الله على بابك ويود أن تفتح له فيدخل ويتعشى معك وأنت معه وعندك يصنع منزلا (٨) ٠

أنت صورة الله التى تحمل صفاته : أنظر الى السيد المسيح له المجد يقول عن نفسه : « أنا نور العالم » ثم يقول لك ولاخوتك معك « أنتم نور العالم » (٩) ٠

أنت الذى طلب منه أن يسعى ليصير مثل الله ، كما يظهر من قول السيد له المجد « كونوا كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات

---

٥) أع ٢٨ : ٣ ــ ٧ ٠
٦) من صلاة الشكر ٠
٧) يو ١٥ : ٤ ٠
٨) يو ١٤ : ٢٣ ٠
٩) مت ١٥ : ١٤ ٠

هو كامل » • أنت الشخص الذى وجد الله لذة فى أن يدعوه ابنه ،

أنت الذى صب الرب ماء وغسل رجليك ومسحهما بالمنشفة التى كان متزرا بها •

أنت الذى قال الرسول عن أعضاء جسدك انها أعضاء المسيح (١٠) •• !!

أنت الوحيد الذى قيل عنك أنك هيكل الله وروح الله يسكن فيك (١١) ••

أنت الذى تشتهى الملائكة أن تكون مثلك ، يا من أنت وحدك تتناول جسد الرب ودمه الطاهرين ، يا من قال الرب أنه يريدك أن تكون واحدا فيه وفى الآب (١٢) •

أنت الذى تخدمه الملائكة :

ملاك الرب حال حول خائفيه وينجيهم (١٣) • ألم تر يا أخى المحبوب كيف أرسل الرب ملاكين لانقاذ لوط من سدوم ، وكيف أرسل ملاكه فسد أفواه الأسود أمام دانيال ، وكيف قال أليشع لتلميذه : « لا تخف لأن الذين معنا أكثر من الذين علينا ••• وفتح الرب عينى الغلام فأبصر واذا الجبل مملوء خيلا ومركبات نار (١٤) » وكيف أحضر ملاك الرب طعاما لايليا وهو نائم تحت الرتمة فقام ايليا وأكل وشرب وسار بقوة تلك الأكلة أربعين يوما (١٥) وكيف حمل ملاك الرب حبقوق ليقدم طعاما لدانيال فى الجب (١٦) ••

---

(١٠) ١ كو ٦ : ١٥ (١١) ١ كو ٣ : ١٦
(١٢) يو ١٧ : ٢١ (١٣) مز ٣٤ : ٧
(١٤) ٢ مل ٦ : ١٥ ـ ١٧ (١٥) ١ مل ١٩ : ٥ ـ ٩
(١٦) دا ١٤ : ٣٥ ـ ٣٨

ويعوزنى الوقت أن أحدثك يا حبيب الرب عن الخدمات التى قدمها الملائكة لك ولاخوتك ، وعن اهتمامهم بك ، وشفاعتهم فيك · انك مخلوق مهم ·

أنت الذى دعيت الها :

أنت يا أخى المحبوب الشخص الذى دعى الها من الله والناس ، « ألم أقل انكم آلهة ، وبنى العلى تدعون (١٧) وقال الله من قبل لموسى « أنا جعلتك الها لفرعون (١٨) » · ليس المقصود طبعا الالوهه كالله ، وانما السيادة ·

وأيا كان معنى هاتين العبارتين فانهما تدلان بلا شك على المكانة الكبرى التى لك عند الله يا أخى الحبيب ·

انت تحل وتربط فى السماء :

إن كان مما يرفع قدرك جدا أن يذهب السيد المسيح بنفسه ليعد لك مكانا عند الآب فى السماء ، ثم يأتى ويأخذك اليه قائلا لك : « تعال يا مبارك أبى رث الملك المعد لك منذ انشاء العالم » أفليس بالأكثر تعلو نفسك فى مقدارها علوا عندما يضع الله فى يديك مفاتيح السموات ، ويقول لك : ما حللته على الأرض يكون محلولا فى السماء وما ربطته على الأرض يكون مربوطا فى السماء ، بل أكثر من هذا يعطيك سلطان الغفران واللاغفران (١٩) ، يعطى كل هذا لك أنت أيها الانسان ، يا صورة الله ومثاله ، بل يا من ظهر الله فى

---

(١٧) مز ٨٢ : ٧ (١٨) خر ٧ : ١

(١٩) هذه العبارة تخص الكهنة طبعا ، والكاهن انسان ، وهذه المقالة تتحدث عن الانســان من حيث كونه انسانا ، بجميع أفراده ، وجميع الأجيال التى مر بها ·

شكله وأخذ جسدا مثله ، ناسوته لم يفارق لاهوته لحظة واحدة ولا طرفة عين ٠

أنت صديق الله :

تذكر أن الله ـ تسامت حكمته ـ قبل أن يحرق سدوم وعمورة يقول : « هل أخفى عن ابراهيم ما أنا فاعله ٠ وابراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض (٢٠) ؟! ٠ وهكذا يعلن الله مشيئته لصديقه ابراهيم ، ويناقشه ابراهيم فى الأمر مناقشة فيها عتاب وفيها دالة وفيها جرأة « أفتهلك البار مع الأثيم ٠ حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر ٠٠ حاشا لك ٠ أديان الأرض كلها لا يصنع عدلا (٢١) ؟ ٠ هذه دالة ٠ ليست مجرد كلام عبد لسيده ، أو مخلوق لخالقه ، وانما هى عبارات صديق يعرف مكانته عند صديقه ٠

وهو ذا موسى يفعل الأمر نفسه فى حديثه مع الله أيضا عندما أراد الله افنـاء شعبه « ٠٠٠ الآن ان غفرت خطيتهم ، والا فامحنى من كتابك الذى كتبت (٢٢) » ٠٠ دالة وصداقة من غير شك !! ٠

هل عرفت يا أخى قيمة روحك ، ومقدار عظمتها أمام الله ، أو تقبل بعد ذلك على كرامتك أن يعبث بك شيطان حقير ، وقد أعطاك الله سلطانا على جميع الشياطين ؟ ! لا أظن ذلك ٠

---

(٢٠) تك ١٨ : ١٧ و ١٨ ٠
(٢١) تك ١٨ : ٢٤ ـ ٢٦ ٠
(٢٢) خر ٣٢ : ٣٣ ٠

كان مستغرقا في نومه

٠٠٠ كان مستغرقا فى نومه حين همس الملاك فى اذنه « الى متى تعيش هكذا ؟ ظلا لانسان آخر يتحكم فيك كما يشاء ؟ ! ٠ » وكان الصوت مترفقا نصوحا فلم يفزع ذلك النائم وانما رد فى هدوء « ماذا تعنى يا سيدى الملاك ؟ » فأجابه الملاك « أقصد أنك فى أفكارك وفى حياتك الروحية قد فقدت شخصيتك ، وأصبحت تعيش بشخصية غيرك ٠ هناك رجل آخر كبر فى عينى نفسه ، ثم ظل يكبر في عينيك أنت ، حتى جعلته مثلك الأعلى تتبعه فى كل شىء : ترتفع معه ان ارتفع ، وتسقط معه حيثما سقط ، آراؤه آراؤك ، وانحرافاته هى انحرافاتك ، بل انك تدافع عن أفكاره أكثر مما يدافع هو عنها ٠ وأنت تؤمن بمبادىء هذا « السيد » دون نقاش ، يكفيك أن معبودك هذا قد نطق بها فى وقت ما » ٠

وأحس ذلك النائم أن كل ما قاله الملاك صحيح ، ولكنه أراد توضيحا لموقفه فقال : « وهل من ضير ياسيدى الملاك فى أن أتبعه ما دامت كل أفكاره سليمة ليس فيها شىء من الخطأ ؟ فقال الملاك : « ومن أدراك أن كل أفكاره سليمة ؟ هل تؤمن بأن سيدك هذا معصوم من الخطأ ؟ أليس من الجائز أن يخطىء كانسان ؟ وان أخطأ فكيف تعرف ذلك ، ما دمت لا تسمع الا أفكاره ولا تود أن تقبل غيرها ؟ وما دام كل شخص يعارض أفكار هذا « السيد » هو فى نظرك شخص لا يصح أن تستمع اليه ، وان استمعت فبروح الجدل ، محاولا أن ترد على كل فكرة وأن تنقضها دون أن تتفهمها لا لشىء الا لأنها تعارض آراء سيدك !! » ٠

وفرك النائم عينيه فى خجل ليتحقق ما اذا كان صاحيا أم نائما بينما استمر الملاك فى حديثه : « ان روحك حبيسة تود أن تنطلق ولا تستطيع ، لأنها مقيدة بقيود هذا الانسان ۰۰۰۰ انه يعطيك من المعلومات ما يريدك هو أن تعلمه : يعلن لك ما يشاء من الحقائق ، ويحبس عنك ما يشاء ۰ وحتى المعلومات التى عندك من ذاتك ، والتى تكتسبها عن غير طريقه ، خاضعة هى أيضا لمراجعته ۰ انك قد فقدت شخصيتك تماما ۰ وأصبحت لا تتصرف من تلقاء نفسك ۰ كلما حاقت بك مشكلة تستصرخ به لينقذك ۰ وكلما عرض لك أمر من الأمور لا تحاول أن تبت فيه بحل حتى يجىء « سيدك » ويحله ۰ وان تصرفت فى الأمر يستطيع أن يلغى تصرفك متى يشاء وكيف يشاء دون أن تعترض ۰ ان أقصى ما يمكن أن تصل اليه فى حياتك هو أن تصبح صورة باهتة من هذا الانسان ۰ شخصيتك التى خلقك الله بها قد ضاعت ، وشخصيته هو لن تستطيع أن تصل اليها تماما ، لأن الظروف الروحية والعقلية والاجتماعية التى كونتها هى غير ظروفك ۰ وهكذا أراك تتأرجح فى وضع غير مستقر بين الحالتين » ۰

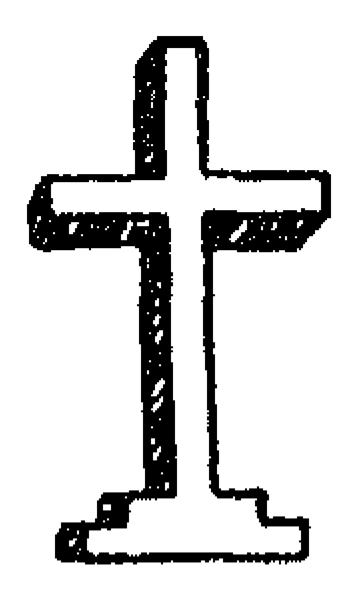
واستمع ذلك النائم الى كل هذه العبارات وهو يشعر أنها تمس صميم نفسه ، بل انه فيما بينه وبين نفسه يحس أنه قد أصبح ضيق الصدر بسلطان ذلك « السيد » ۰

وهكذا وجد الشجاعة فى أن يطلب الى الملاك أن يوجد له حلا فقال « ولكن كيف أستطيع يا سيدى الملاك أن أناقش معلمى » ؟ فأجاب الملاك : « أقول لك ــ والقياس مع الفارق ــ ان الله يحب أن يكون أولاده أقوياء الشخصية حتى أنه كان يسمح لهم ان يناقشوه » ۰ أنظر الى أرميا وهو يقول « أبر انت يا رب من أن أخاصمك ولكنى أكلمك من جهة احكامك ، لماذا تنجح طريق الأشرار ، اطمأن كل الغادرين غدرا » (أر ١٢ : ١) واستمع الى ابراهيم وهو يناقش الله تمجد اسمه ويقول له : « حاشا لك أن

تفعل مثل هذا الأمر ·· أديان الأرض كلهـا لا يصنع عدلا ؟ » (تك ١٨ : ٢٥) وانتقل معى أيضا الى موسى وهو يكلم خالقه فوق الجبل بنفس الأسلوب فيقول له : « ارجع عن حمو غضبك ، واندم عن الشر » (خر ٣٢ : ١٢) ·

فقال النائم للملاك « والآن ماذا تريد يا سيدى الملاك أن افعل ؟ » فأجابه الملاك « أريد الا تلقى قيادتك الى انسان معين ، وانما استمع الى الكثيرين ، واقرأ للكثيرين ، واستعرض ما تشاء من الآراء · وليكن لك روح الافراز ، فتميز الرأى السليم من الرأى الخاطىء ، وتعتنق من كل ذلك ما يناسب حالتك أنت بالذات من جهة تكوينك الروحى والعقلى ، وما يناسب ظروفك الاجتماعية والعملية ، ويتناسب أيضا مع سنك ، عالما أن هناك طرقا كثيرة تؤدى الى الله ، وقد يكون الطريق الذى صلح لغيرك غير الطريق الذى يصلح لك أنت بالذات ، الطريق الذى اختاره لك الله ـ وليس الناس ـ دون غيره من الطرق ·

·· ثم استيقظ النائم من نومه ، ليرى نفسه انسانا جديدا ، قد انطلقت روحه ، حرة من كل قيد ، تبحث عن الحق أينما وجد ، ولا تؤمن بعبادة الأشخاص ··





هل تود أن تكون كاملا يا أخى الحبيب ؟ وهل تريد أن تنطلق روحك انطلاقا الى حيث لا قيود ولا حدود ؟ اذن فعليك قبل كل شيء ، أن تفرغ ذاتك من كل شيء : من كل ما أرسبه فوقك العالم من رغبات وعلوم وأحاسيس ..

عليك أولا أن تنكر ذاتك ، وان تقف أمام الله كلا شيء . اعرف نفسك بالحقيقة ، من أنت ؟ ألست مجرد حفنة من تراب ، من تراب الأرض .. ؟ بل أنت أقل من تراب . أنت عدم ، لا شيء مر وقت لم تكن فيه موجودا ، ومع ذلك كان العالم عالما ، من غيرك . ثم كونك الله اذ لم تكن : خلق التراب أولا ، ثم خلقك من تراب . علام اذن ترتفع ، ومن إنت حتى ترتفع ؟ اخفض رأسك فى خجل وذلة . فأنت عدم . وقف أمام الله فى انكسار نفس وانسحاق روح ذاكرا أصلك القديم .

هل عرفت انك عدم ؟ بل أصارحك أيضا انك **أقل من عدم** . فالعدم هو لا شيء ولا شيء خير من الخطية التى جلبها الانسان اذ أن « تصور قلب الانسان شرير كل يوم » (تك ٦ : ٥)

فان وجدت فيك شيئا صالحا ، تيقن تماما انه ليس منك ، بل هو من الله الكلى الصلاح ، والكامل القدوس وحده ، لأنه ليس

أحد صالحا الا الله وحده (متى ١٩ : ١٧) • ان وجدت فيك شيئا صالحا فلا تنتفخ ولا تتفاخر ، ولا تحارب نفسك بالبر الذاتى ، وانما ارجع المجد لله ، لأنه هو المستحق وليس انت ، فالله هو الذى صنع الخير ، لأنه صانع الخيرات ، بل لأنه هو الخير ذاته ، وهو الصلاح ذاته ، وأنت بدونه فناء لا تستطيع أن تعمل شيئا • فلا تسرق مجد الله وتنسبه لنفسك • قد تضىء كالقمر ، ويزداد ضياؤك حتى تظهر بدرا ، ولكن فى كل ذلك تذكر أن القمر هو كوكب مظلم يستمد نوره من الشمس ، وليس فيه ضياء من ذاته ، وان احتجبت عنه الشمس لا يظهر منه شيء لأنه مظلم بطبيعته • أترى يستطيع القمر أن يتحدث عن « نوره » أمام الشمس ؟ ! هكذا انت أيها الحبيب أمام الله •

أما ان وجدت فيك شرا فاعرف أنه منك ، من الخطية الرابضة التى اشتقت اليها • وكنت تسود عليها فسادت عليك (تك ٤) ، لأنه ليس شر من قبل الله • الله الذى لا يتفق الشر مع طبيعته والذى بعد أن عمل كل شيء بيديه الطاهرتين اللتين بلا عيب ولا دنس ، « نظر الى كل ما عمله فاذا هو حسن جدا » •

هل عرفت ذاتك يا أخى الحبيب ؟ وهل أدركت أن انكار الذات هو القاعدة الاساسية لعلاقتك مع الله ؟ لست أقصد أن تعتبر ذاتك شيئا تتواضع فتنكره ، لأن ذاتك لا شيء ، عدم وفناء •• ولست أحب أن استعمل كلمة « تواضع » لأن المتواضع هو الكائن الذى يتنازل من مكانه الى درجة أقل ارتفاعا وأدنى سموا • أما انسان حقير مثلى ومثلك ، كان ترابا وعدما ، مستحيل عليه أن يتواضع ، اذ ليست له درجة حتى يرفضها ، أو كرامة حتى يتخلى عنها • وليس هو مرتفعا حتى ينزل ، أو ساميا حتى يتضع • وانما كل ما أقصده من انكار الذات يا أخى المحبوب هو

أن تعرف ذاتك ، فتدرك أنه لا قيمة لك على الاطلاق · وانما هو الله الذى يتحنن عليك فيهبك ان أحببته ، شيئا من مجده ، الذى لا تستحقه ، لولا رحمته ولولا تواضعه هو وتنازله ·

دعنا نتدارك اذن فنتأمل تلك الآية الجميلة التى تقول « ·· اختار الله جهال العالم ليخزى الحكماء · واختار الله ضعفاء العالم ليخزى الأقوياء · واختار الله أدنياء العالم والمزدرى وغير الموجود ليبطل الموجود لكى لا يفتخر كل ذى جسد أمامه » (١ كو ١ : ٢٧ ـ ٢٩) ·

فما معنى هذا ؟ ألا يصلح لملكوت الله الا الجهال والضعفاء والمحتقرون ؟ ! كلا · فقد اختار الله قوما مثقفين من أمثلة موسى وبولس وارسانيوس ، كما اختار القديسين الفلاسفة أثيناغوراس وبنتينوس واوغسطينوس · واختار الله رجالا أقوياء مثل شمشون والقوى الأنبا موسى ، واختار رجالا محترمين مثل داود الملك والأميرين مكسيموس ودوماديوس ··

فكيف التوفيق بين الأمرين ؟

ليس المقصود اذن أن الله لا يختار الا الجهال والضعفاء والمحتقرين ، بل لعل المقصود هو أنه ـ تبارك اسمه ـ يختار الأشخاص الذين مهما بلغوا من علم أو قوة أو كرامة ، يقفون أمامه كجهال وضعفاء محتقرين ·

فهذا موسى الذى تهذب بكل حكمة المصريين ، لم يرسله الله عندما كان واثقا بنفسه ، ومعتمدا على قوته البشرية · ولكنه دعاه عندما وصل الى الدرجة التى قال فيها « من أنا حتى أذهب الى فرعون وحتى أخرج بنى اسرائيل من مصر ، ·· لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا من حين كلمت عبدك · بل أنا ثقيل الفم واللسان » (خر ٣ : ١١ ، ٤ : ١٠) ·

وهـذا هـو بولس الذى درس الناموس وتعلم تحت قـدمى غمالائيل ، لم يرسله الله الا عندما وصل الى الحالة التى يستطيع أن يقول فيها : « ... لأنه مكتوب سأبيد حكمة الحكماء وأرفض فهم الفهماء . أين الحكيم . أين الكاتب . اين مباحث هذا الدهر . ألم يجهل الله حكمة هذا العالم ... وأنا كنت عنـدكم فى ضعف وخوف ورعـدة كثيرة وكلامى وكرازتى لم يكونا بكلام الحكمـة الانسانية المقنع بل ببرهان الروح والقوة » (١كو١:١٩،٢:٣،٤) .

وأرسانيوس لم يجعله الله أبا ومرشـدا ، عنـدما كان معلمـا للأميرين أركاديوس وهونوريوس فى قصـر أبيهمـا الامبـراطور ثيئودسيوس . بل عندما تنقت روحه واصبح فى امكانه أن يقول عن نفسه : « ان أرسانيوس معلم أولاد الملوك » الذى درس حكمـة اليونان والرومان ، لا يعرف الألفا فيتـا التى يعرفها هـذا المصرى الأمى » .

هل تظن يا أخى العابد أنك ستبنى ركنا فى الكنيسة بعلمك وثقافتك ؟! يا لك من مسكين . الحق أقول لك ان لم تنطلق من اعتمادك على معرفتك فلن تصل الى الله ، ولن يبارك الله لك فى خدمة لأنك ان نجحت فسوف ينسب الناس نجاحك الى ما وهبه لك العالم من شهادات واجازات علمية ، وهكذا يسلب من الله مجده ويعطى للعالم . الله ـ يا أخى المتعلم ـ قادر فى القرن العشرين أن يذهب الى البحيرة من جديد ، ويختار صـيادا جاهلا لكى يقيمه رسـولا وكاروزا . فيعلم الناس خيرا منك . ان الله عندما شق البحر الأحمر لم يختر لذلك قضيبا من ذهب ، وانما عصا بسيطة كانت توجد ملايين من مثيلاتها فى العالم .

فحاذر أن تظن فى نفسك أنك شىء ، أو أن تغتر بثقافة العالم . وحاذر ـ حتى فى حياتك الروحية الخاصة ـ أن تعتمد على معرفتك العالمية أو الدينية أو قراءاتك الروحية أو خبراتك القديمة . وانما

كلما ازددت علما ، وكلما تعمقت فى الروح ، قف كل يوم أمام الله وأنت شاعر بجهلك وعجزك وأنت محتاج اليه ليرشدك ، كمبتدىء ، مهما كنت قديم الأيام • قف أمامه وأنت شاعر بحاجتك الماسة اليه ليحميك من أضعف الشياطين ، ومن أبسط الخطايا فى نظرك ، ومن أتفه الزلات أمام عينيك •

ليكن لك هذا الشعور •• لأنى رأيت كثيرين بعد أن قرأوا وكتبوا عن عمق الروحيات يسقطون فى خطايا المبتدئين ••• وأقول لك هذا أيضا خوفا من أن ثقتك بعلمك الروحى وخبرتك الروحية • تجعلك تعتمد على ذراعك البشرى ، « وملعون من يتكل على ذراع بشر » •

واعلم يا أخى الحبيب أن كل علم روحى أو عالمى لا يقودك الى حياة الانسحاق والى الشعور بالجهل ، هو علم باطل وخداع للنفس ، بل هو ضربة من الشيطان يصرفك بها عن أن تسأل وتطلب وتقرع الباب •• فاشعر يا أخى بجهلك اذ يقول الكتاب : « ان كان أحد يظن أنه حكيم بينكم فى هذا الدهر ، فليصر جاهلا لكى يصير حكيما » (١ كو ٣ : ١٨) •

وكما أنه أمام الله يتساوى الحكيم والجاهل فى أنهما كليهما جاهلان وأن موت هذا كموت ذاك ، ونسمة واحدة تهب على الاثنين كذلك أمام الله يتساوى الضعيف والقوى لأنهما كليهما ضعيفان ، اذ ليست هناك قوة لأحد فى حضرة الله •

هل تعتقد يا صديقى أنك قوى ؟ اذن فمن أين أتتك القوة ؟ انها ليست من ذاتك طبعا لأنك تراب ورماد ، بل عدم وفناء • وهى ليست من كائن آخر غير الله ، لأنه ــ تبارك اسمه ــ هو وحده القوى ، ومنه تستمد كل قوة • فهل قوتك اذن من الله ؟ ان كان الأمر كذلك فلماذا تفتخر ؟ ولماذا تتصلف ؟ ولماذا تستخدم قوة الله فى غير أعمال الله ؟ اذن فان افتخر أحد فليفتخر بالرب ، لأنه ــ تعالى

فى مجده ــ مصدر كل شىء يدعو الى الفخار ، وان كنت أيها الانسان الضعيف بطبيعتك قويا بالله ، فقل اذن كما قال الطوباوى بولس : « فبكل سرور أفتخر بالحرى فى ضعفاتى لكى تحل على قوة المسيح • لذلك أسر فى الضعفات ••• لأنى حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوى » • (٢ كو ١٢ : ٩ ، ١٠)

الشخص الذى يعتقد فى نفسه أنه قوى لا يستخدمه الله • لأن الله يختار ضعفاء العالم ليخزى بهم الأقوياء ، فحاذر من أن تثق بقوة مزعومة لك • لأن الخطية « طرحت كثيرين جرحى ، وكل قتلاها أقوياء » • وانما قل مع داود البار « ارحمنى يا رب فانى ضعيف ، أشفنى يا رب فان عظامى قد اضطربت ، ونفسى قد انزعجت جدا » • تأكد يا أخى من ضعفك ، ليس لأنى قلت هذا وانما لأنها الحقيقة الواضحة • ألم تسقط اليوم وتخطىء ؟ ألم تخطىء أمس وقبلا من أمس ؟ لست قويا اذن ، بل ضعيفا ومثالا للضعف • وستظل كذلك حتى تعترف بضعفك ، وتسرع وتثبت فى الآب والآب فيك •

نصيحة أخرى أهمس بها فى أذنك : لا تجلس فى خلوتك وتظن أنك أقوى من الناس ، وتستعرض المشروعات العظيمة التى يمكنك القيام بها لو أعطيت لك سلطة ، أو لو كنت فى مكان الآخرين • انك لست قويا يا أخى بهذا المقدار ، وما هذه الا أحلام اليقظة ، أو لعله الغرور • أما أنت فضعيف ، وربما لو كنت فى مكان أولئك الخطاة الذين تنتقدهم لأخطأت أكثر منهم ، ولأظهرت ضعفا أكثر من ضعفهم • ان كنت قد انتصرت فى الماضى أو تنتصر الآن ، فسبب ذلك هو وجود الله معك ، وليس السبب أنك قوى • احتفظ اذن ببقاء الله معك عالما أنه لن يرضى بالبقاء طالما أنت تعبد ذاتك بدلا منه •

واحد من اثنين يعمل فى الميدان : اما الله واما أنت • ان كنت تعتقد أن الله هو الذى يعمل ، وأنك لا شىء الى جواره ، بل انك

متفرج تنظر الى أعمال الله فى اعجاب ، ان كنت تعتقد هذا فحسنا تفعل · أما ان كنت أنت الذى تعمل ، وأن لك من القوة ما يكفل لك ذلك ، فثق أن كل ما تعمله باطل هو ، وستفشل فيه ·

لست أقول هذا عن خدماتك وأعمالك الخارجية ، وانما عن صميم حياتك الروحية أيضا ، ان اعتقدت أنك أنت الذى تجاهد لترث الحياة الأبدية ، فسوف تفشل فى جهادك · وان اعتقدت أن خطية ما لم يعد لها سلطان عليك ، فقد تسقط فيها ولو بعد حين ، ويكون سقوطك عظيما ···

ولكن الحل الصحيح هو أن تشعر بضعفك ، فى أرض تنبت لك شوكا وحسكا ، أن تشعر بضعفك ، أمام كل تجربة وكل خطية قائلا مع المرنم : « لولا أن الرب كان معنا ليقل اسرائيل ، لولا أن الرب كان معنا حين قام الناس علينا لا بتلعونا ونحن أحياء ، عند سخط غضبهم علينا » (مز ١٢٣) وهكذا تصرخ الى الله ، ثم تنظر كيف يحارب عنك وينتصر فتمجد الله وليس نفسك ، لأن النصرة كانت من عنده ·

وأخيرا ، أشعر أن هناك أشياء كثيرة لنتحدث عنها معا فى هذا الموضوع ، فاذكرنى يا أخى الحبيب فى صلاتك حتى نلتقى مرة أخرى ونكمل تأملنا ، ان أحبت نعمة الرب وعشنا ·

ذاتك ومديح الناس

كلمتك فى المرات السابقة عن انكار الذات ، وما يزال هناك كثير اقوله لك فى هذا الموضوع حتى نصل سويا الى انطلاق الروح ·

أتريد يا أخى أن تصل الى الله ؟ اتحب أن تردد عبارة الطوباوى بولس « لى اشتهاء أن انطلق واكون مع المسيح فذاك أفضل جدا » اذن فانطلق أولا من ذاتك ، من ذاتك التى تعبدها بدلا من الله وتحاول باستمرار أن تراها ممجدة معظمة أمام الآخرين ·

هل يمجدك العالم يا أخى الحبيب ، وهل تقبل منه هذا التمجيد ؟ يا لك من مسكين ··· ألست تعلم أن المجد لله وحده ؟ لأنه خالق الكل ومصدر جميع الكائنات ولأنه الوحيد الواجب الوجود ، والأزلى ، والقادر على كل شىء ، والمالىء كل مكان ··· ألست تعلم اذن أنك ان مجدت ذاتك ، أو مجدك الناس فانما تسلب صفة من صفات الله · وتنسبها الى نفسك !! أهى التجربة التى حاربت أباك آدم ، اذ لم يكتف بما وهبه الله من نعيم ، بل أراد أن يكبر حتى يصير مثل الله ؟

ومن أنت يا أخى حتى تتمجد ؟! هل للتراب مجد ، أو للرماد كرامة أو للعدم احترام وهيبة ؟! ثم ألست خاطئا مثلى ، وان كان الله قد سترك وأخفى عيوبك عن الناس ـ فهل للخاطىء مجد ، وهل للضعيف كرامة ؟ اذن لماذا تمجد نفسك ، وأنت تعرف حقيقتك بكل ما فيها من خطايا ونقائص وعيوب ···

هل تفعل هذا لأن الناس لم يعرفوا حقيقتك بعد ، ولم يعلموا كل شيء من ماضيك ، ولم يكتشفوا كل ضعفاتك ، ولم تظهر أمامهم أخطاؤك ؟ لماذا اذن تخدعهم وأنت تعلم ؟ بل لماذا تخدع نفسك ، والخداع لا يفيدك شيئا ؟؟ ألهذا الحد تستغل ستر الله وكتمانه حالتك عن الناس ••• أتوده اذن أن يعلن للآخرين أفكارك وأحاسيسك ورغباتك المكبوتة ••• !!

ثم لماذا تبحث عن مجد زائل ، لا يصحبك بعد الموت ، ولا يقف معك فى يوم الدينونة ، أمام الديان العادل ، الذى لا يتأثر فى حكمه عليك برأى الناس فيك ، لأن كل شيء مستور ، هو عريان قدامه •••

ألا يزال عزيز عندك مدح الناس ؟ ألست تعرف أن مديحهم زائف : لأنه يكون أحيانا على سبيل المجاملة أو التشجيع أو التملق أو الخجل ، كما أنهم حتى ان صدقوا وأخلصوا فهم انما يحكمون حسب الظاهر وليس فيهم من يقرأ فكرك ، أو يعرف نياتك ، أو يدخل الى قلبك ليفحص ما فيه •••

يا أخى الحبيب : اننى ولا شك قد أثقلت عليك بأفكار مجتمعة فهل تريد أن أقص عليك قصة ، لتكن اذن قصة نبوخذ نصر (دا ٤ : ٢٩ ــ ٣٣) : هل تعرف كيف نسب لنفسه مجدا زائلا ؟ وهل تعرف كيف كانت نهايته ؟ اذن ليته يكون درسا لك •••

أتراك تضايقت ؟ سامح ضعفى ، وأسلوبى الخشن فى التعبير • ولكن أهى عادتك باستمرار أن تتضايق من شخص يكلمك بصراحة ؟ لا يتملقك ، ولا يستعمل معك ألفاظ التفخيم التى يستعملها الناس ••• لماذا ؟ ••• الأولى بك يا أخى العزيز أن تحب هذا

الأسلوب ، لأنه يوقفك امام حقيقتك ، وما أشد احتياجك الى الوقوف امام هذه الحقيقة ، حتى تعرف نفسك ، تلك المعرفة اللازمة لخلاصك ٠

ولكن دعنا نناقش الأمر معا ٠ لماذا تريد أن تظهر عظيما أمام الآخرين ؟ أهو مركب النقص ؟ هل تشعر فى ذاتك أنك فى درجة صغيرة ٠ وتريد أن تعوض ذلك بأن تكتسب مدح النـاس بكافة الطرق : ان مدحوك سررت ، وان هاجموك دافعت بحرارة عن نفسك حتى لا تظهر امامهم معيبا ، وان وقفوا منك محايدين لا مدح ولا مهاجمة ، لم يعجبك هذا ايضا واخذت تتسول مدحهم بأن تحدثهم عن فضائلك حتى يعجبوا بك فيمدحوك ٠٠٠

أهذه هى الحقيقة ؟ ان كانت كذلك ، فلنحاول مناقشتها معا :

حسن يا أخى أن تشعر بأنك ناقص وخاطىء وضعيف وأقل من الناس جميعا ، ولكن علاج هذا النقص لا يأتى باضافة نقص جديد اليه عن طريق محبة مدح الناس ، وانما يأتى بتكميل الذات واصلاح أمرها ٠

لماذا يهمك رأى الناس فيك ومدحهم اياك ؟ ألعلك ستدخل ملكوت الله ان رشحك الناس لهذا ؟! اذن فاعلم أن كثيرا جدا من الذين يمدحهم الناس سيلقون فى البحيرة المتقدة بالنار والكبريت ٠٠ « وويل لكم ان قال فيكم الناس حسنا » (لو ٦ : ٢٦) ٠

مدح الناس يا صديقى وقتى وزائل ٠ وهم لا يثبتون على حال ٠ للذين هتفوا للسيد المسيح كملك ٠ صرخوا أيضا قائلين « أصلبه أصلبه » ومدح الناس أيضا زائف لأنهم لا يعرفون الحقيقة تماما ٠

اليك سـؤال يهمنى أن تجيب عليه اجابة صريحة : ماذا يكون شعورك عندما يمدحك الناس وانت تعرف عن خفاياك ما يخجل ؟

هل تنسى أثناء مدحهم تلك الخطايا التى لو عرفوها عنك لطردوك خارج المجمع أم أنت تتناساها ؟ أم تعتبرها مكدرات لا يجب أن تظهر أثناء نشوتك بمديح الآخرين ؟ اذن فأنت يهمك فقط خارج الكأس ، يهمك أن تكون كالقبور المبيضة من الخارج ومن الداخل نتنة ؟! اذن فأنت تهمك الحيـاة الأرضية فقط ولا تأبه للحيـاة الآتية • صارح نفسك يا أخى المحبوب بحقيقة مشاعرك ، واعترف بهذا بينك وبين نفسـك أولا ، ثم اسكب هـذه الذات أمـام أب اعترافك ، اسكبها فى بكاء وأنين وألم مر •

واليك ما يجب أن تشعر به عندما يمدحك الناس :

١ ـ أشعر أولا أنك ربما تكون مرائيا ، تظهر للناس غير ما تبطن • قل لنفسك فى صراحة « اننى شخص خاطىء دنس ، وعندما أجلس الى أب اعترافى أكاد أذوب خجلا وعندما أحاسب نفسى على خطاياى تنسحق ندما وشعورا بالخسة والحقارة ، وتصغر ذاتى أمام عينى ، وعندما أقف للصلاة أشعر أننى غير مستحق أن أرفع نظرى الى فوق •• فلماذا اذن يمدحنى الناس • ألعلنى مرائى؟ ألعلنى ذو وجهين؟ : أظهر أمام الناس بشخصية، وحقيقتى شخصية أخرى ؟ هل أنا ممثل ؟ ربما أكون •••

٢ ـ أشعر أن مدح الناس ربما يجعلك تستوفى أجرك على الأرض فلا تنال أجرا فى السماء ، وهكذا يضيع أكليلك بثمن بخس • ان مدحك الناس فخير لك أن تحزن • احزن على اكليلك الذى يوشك أن يضيع • وهذا الحزن المقدس يصفى نفسك ويجعل روحك تنطلق بالأكثر •

٣ ـ عند مدح الناس لك أشعر أنك ربما تكون مختلسا : قد سلبت مجد الله ونسـبته الى نفسـك • لقد قال السـيد المسـيح : « لكى يروا أعمالكم الحسنة ، فيمجدوا أباكم الذى فى السموات

(متى ٥ : ١٦) فان كان المجد قد رجع اليك انت بدلا من الآب ، فربما يكون هذا اختلاسا وأنت لا تدرى ، أو وأنت تدرى · عندما تصلى وتقول : « لأن لك الملك والقوة والمجد » أنب نفسك التى تريد أن يكون المجد لها فتنافس الله فى قوته ؟ « ليس لنا يا رب ليس لنا ، ولكن لاسمك القدوس اعط مجدا » (مز ١١٥ : ١) ··

٤ ـ عندما يمدحك الناس انكر ذاتك ، ووجه أنظارهم الى الله ، فى غير رياء وفى غير تظاهر بالتواضع ، اذكر لهم انك خاطىء وضعيف ، وأن الله هو الذى فعل الأمر الذى يستحق المديح · وكما توجه هذا الكلام الى الآخرين ، توجه به أيضا الى نفسك واقتنع به حتى لا تعود فتنتفخ ·

٥ ـ اذا وجدت البعض قد بدأ قصة أو حديثا أو خبرا سينتهى بمدحك ، حاول أن تغير مجرى الحديث أو على الأقل لا تسر بالمدح وانسبه الى الله عن اقتناع ·

٦ ـ عندما يمدحك الناس تذكر هاتين الآيتين الجميلتين « مجدا من الناس لست أقبل » (يو ٥ : ٤١) ، « مجدنى أنت أيها الآب عند ذاتك ·· » (يو ١٧ : ٥) احفظ هاتين ورددهما كثيرا فى فكرك ·

٧ ـ وعندما يمدحك الناس تذكر خطاياك ، واترك ضميرك يؤنبك حتى يكون هناك توازن بين داخلك ، وبين مدح الناس من الخارج ·

وأخيرا ، ان كان هذا هو المطلوب منك عندما يسعى اليك مدح الناس فبديهى جدا أنك لا تسعى بنفسك الى طلب هذا المديح أو استجدائه مما سنرجع اليه فى المقال القادم ان شاء الرب وعشنا · صل من أجلى ·

ذاتك وإساءات الناس

ان لم تنطلق من ذاتك يا أخى الحبيب من ذاتك هذه التى تعبدها من دون الله ، والتى تكبرها وتفخمها أمام الناس ، فلن تصل أبدا الى سمو انطلاق الروح •

لعلك تحب أحيانا أن يمدحك الناس ، ولقد تفاهمنا فى مقال سابق عما يحسن بك فعله عندما يمدحك الآخرون • أما فى جلستنا الهادئة هذه ، فأود أن أسألك سؤالا :

ما هو شعورك وتصرفك عندما يسىء اليك الغير أو يظن بك الظنون ؟

ربما تفكر فى ذاتك أنك أهنت ، وربما تفكر فى كرامتك وهيبتك والاحترام الواجب لك : فتغضب وتثور ، وتثأر لذاتك ، وتدافع عن نفسك • لست أنكر عليك هذا ، فأنا انسان فى الجسد مثلك جربت هذه المشاعر جميعا ، أو جربت بهذه المشاعر جميعا ولكن دعنا نناقش الأمر معا ••

ماذا يفيدك الغضب ؟ ••• انه يعكر دمك • ويتلف أعصابك ، وأخطر من ذلك كله أن الغضب يفقدك سلام القلب وراحته • ألم تسمع معلمنا يعقوب الرسول يقول : « ان غضب الانسان لا يصنع بر الله » (يع ١ : ٢٠) ، وغضبك من أجل ذاتك هو لا شك

غضب انسانى كالذى يقصده معلمنا يعقوب . تقول ان هذا الغضب ينفس عنك ، ويفرج عن الثورة المكبوتة فى داخلك . ولكن لماذا تختزن فى داخلك ثورة مكبوتة تحتاج الى تنفيس ؟ السبب فى ذلك واضح طبعا ، هو أنك تفكر كثيرا فى ذاتك ! انطلق يا أخى الحبيب من هذه الذات وأنت تستريح .

ان أهنت فلا تفكر فى ذاتك أنك أهنت . وانما فى ذلك الذى أهانك ، انه أخوك . وأنت كشخص روحى ممتلىء بالمحبة ، عليك أن تفكر فى هذا الأخ الذى أخطأ : ماذا تفعل لأجله . انك لا تريد طبعاأن تنحدر نفسه الغالية الى الجحيم ، ولا تريد أن تقف اهانته لك عقبة فى طريق خلاصه . لذلك فأنت تطلب الى الله ألا يقيم له هذه الخطية ولا يعاقبه عليها ، ثم أنت أيضا تصلى من أجله أن يخلصه الله من الخطية ذاتها فلا يعود الى اقترافها معك أو مع غيرك .

وعندما تفكر فى أخيك هذا الذى أهانك ، قد تفكر فى السبب الذى جعله يفعل ذلك : ربما يكون مريضا أعصابه متلفة ، أو متعبا عقله مجهد ، أو قواه منهكة ، أو مرهقا بمشاكل اجتماعية أو دراسية ، أو مالية ... فأنت تفكر فيما يمكن أن تفعله لأجله ، وهكذا قد تخطر ببالك رحلة أو نزهة لطيفة تدبرها له ، أو قد تساهم بجهد فى التخفيف أو الترفيه عنه . وان لم تستطع شيئا من هذا كله فعلى الأقل ترثى له ، وتطلب له من الله معونة خاصة .

ان الناس يا أخى الحبيب لم يخلقوا أشرارا ، لأن الله بعدما خلق الانسان « نظر الى كل ما فعله فاذا هو حسن جدا » وأما الشر فانه يأتى الى الناس من الخارج دخيلا عليهم ...

وهذا الشخص الذى أهانك ، ربما تكون لاهانته لك أسباب أخرى . ربما يكون قد أساء فهمك . ومثل ذلك تفاهم معه وأقنعه فى وداعة ومحبة .

ولكن هناك نوعا من الناس يهين الآخرين حبا في اهانتهم ، مستغلا تسامحهم ليتخذهم مجالا للفكاهة والتندر . مثل هذا الصنف اما أن تبتعد عنه ، واما أن تكلمه بلهجة حاسمة حازمة مؤدبة مظهرا له خطأه ، ومانعا اياه من تكراره . ولتفعل هذا ليس على سبيل الثأر للنفس ، أو الاحتفاظ بكرامة ذاتية ، وانما حبا في ذلك المخطيء حتى لا تترك له فرصة أخرى للخطأ ، ومجالا يسقط فيه ويهلك بذلك نفسه ...

وشتان بين توبيخك لخاطيء بغرض انتقامي ، توبيخا يجعله يثور عليك ويحتك بك ، وبين تأنيب المحبة الحازم الهاديء الذي يشعر فيه الشخص أن مؤنبه يحبه ...

هذا كله عن موقفك من جهة الشخص الذي تشعر أنه أهانك ، ولكن اسمح لي أن أدخل قليلا الى أعماق نفسك لأناقش شعورك الباطن بينك وبين نفسك .

١ ـ لماذا تحسب الكلام الذي يقوله غيرك أنه اهانة ، أو أنه شتيمة ؟ لماذا لا تكون تلك التي تحسبها اهانة هي كلمة صريحة لازمة لاصلاح نفسك ؟ وان كنت قد تضايقت منها فذلك لأنك تحب المديح ، وتريد أن يقول فيك جميع الناس حسنا . افرح يا أخي بانتقاد الناس وتأنيبهم ، فان ذلك صالح لك ينقيك ويفيدك في حياتك الاخرى . اذا انتقدك شخص فأولى بك أن تشكره فربما يكون صوته هو صوت الله . أقصد أن الله المحب لك ربما يكون قد أرسل هذا الانسان ليرشدك ويظهر لك خطأك حتى تتركه .

٢ ـ ربما تكون تلك الاهانات تأديبا لك من الله على خطايا أخرى ، اقترفتها في ماض قريب أو ماض بعيد . عندما سمع داؤد

النبى اهانة كهذه قال فى انسحاق : « الله قال لهذا الانسان اشتم داود » (٢ صم ١٦ : ١٠) • عندما يهينك غيرك يا أخى الحبيب تذكر خطاياك الماضية ، واعرف انك لست بالشخص الخالص النقاوة الذى يسمو عن التوبيخ •••

٣ ـ فى بعض الأحيان يكون الله قد عمل عملاً ناجحا عن طريقك ، فاتخذت انت هذا النجاح سلاحا تنتفخ به ، وتحارب نفسك بالبر الذاتى ، وخشى الله عليك من السقوط عن طريق الكبرياء فسمح أن تهان ، حتى يوجد توازنا بين مشاعرك ، ويخفف شيئا من كبريائك • كثيرون من الذين يهانون متكبرون ، أما الودعاء فيرفعهم الله من المزبلة ليجلسهم مع رؤساء شعبه (مز ١١٢) •••

٤ ـ ربما تكون قد أعثرت غيرك بتصرفك وانت لا تدرى ، وكان هذا هو سبب اهانتك • لذلك يحسن أن تدرس وجهة نظر من اهانك ، لعله على حق •••

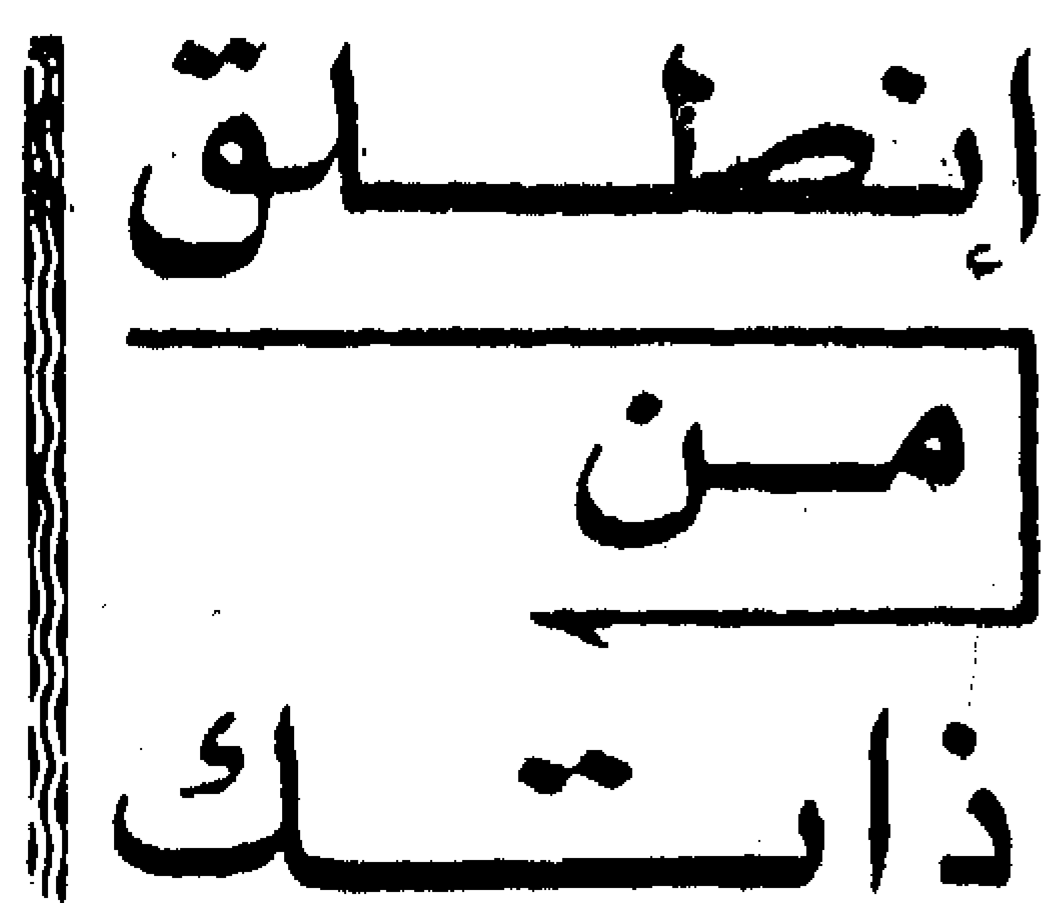
٥ ـ قد تكون هذه الاهانة درسا لك فى المحبة والاحتمال • قال لى احد الآباء الروحيين عن راهب اعتزل ولم يختلط بالاخوة فى المجمع « ان فترة الوجود فى المجمع لازمة للراهب • لأنه ان لم يستطع أن يحتمل مشاكسات الاخوة فى المجمع ، فكيف يستطيع أن يحتمل محاربات الشياطين فى الوحدة كما قال مار اسحق !! » •

٦ ـ ماذا يضيرك عندما يحكم عليك انسان حكما ظالما • أو عندما يظن فيك أنك مخطىء ؟ ألعل هذا يعوقك عن ملكوت الله ، أم أن الله سيعتمد أحكام الناس ؟

٧ ـ أم انك تحب المديح والتطويب من بشر هم تراب مثلك ؟ سيدك يا صديقى « ظلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه (اش ٥٣ : ٧) ، « أحصى مع اثمة » أما هو فقبل هذا الصليب ...

٨ ـ أخيرا يا اخى الحبيب ، اذا أهنت فتضايقت ، وكبرت عليك الاهانة على الرغم من أنك خاطيء مثلى ، فتذكر كيف أننا نهين الله فيصبر علينا ويحبنا ويقبلنا اليه ! ما أعظم الهنا الحنون ، ليس له شبيه بين الآلهة ...





ان كنت ماتزال تهتم بفكرة الناس عنك ، وتتخذ كافة السبل ليحسن رأيهم فيك فمن الصعب أن تصل الى سمو انطلاق الروح .

فى بعض الأحيان لا يمدحك الناس ، أو يكون مديحهم لك أقل من مديحهم لغيرك . فبدلا من أن تسر وتبتهج ، لأن شيطان المجد الباطل نائم عنك ولو الى حين ، أراك تسعى الى اتعاب نفسك فتجلس الى الناس تتسول مديحهم بطريقة لا تتفق مع كرامتك كابن لله ، وهكذا تحدثهم عن نفسك ...

فهل تسمح لى يا أخى الحبيب أن أناقش معك الأمر بنفس ما اعتدناه قبلا من صراحة ؟

١ ـ لماذا تحدث الغير عن نفسك ؟ أتريدهم أن يعجبوا بك ؟ اليك اذن هذا السؤال الصريح :

هل أنت فى أعماق ذاتك معجب بنفسك ؟ لا شك أنك فى حقيقتك متضايق من نقائص كثيرة محيطة بك ، لماذا تريد اذن أن يمجدوا شخصية انت نفسك غير مقتنع بتمجيدها ؟

٢ ـ لو اعتمدنا فرضا مبدأ الحديث عن النفس ، فهل أنت تعطى صورة صادقة حقيقية عن نفسك ؟ أم أنت تذكر للناس النواحى البيضاء فقط ، وتترك النقط البشعة الحقيرة التى تنفرهم منك ؟ ألا تعرف يا صديقى ان أنصاف الحقائق ليست

كلها حقائق ؟ ألست ترى اذن أن فى حديثك عن نفسك شيئا من الخداع والكذب وتقديم وجه واحد من صورة لها عيوبها ـ تلك العيوب التى تعرفها أنت جيدا والتى يعرفها معك أبوك الروحى ؟

٣ ـ انك تعرف بلا شك أن حديثك عن (فضائلك) يضيع عليك أجرك · ولست أشك أنك قرأت العظة على الجبل وسمعت فيها « لا تعرف شمالك ما تفعله يمينك » « فأبوك الذى يرى فى الخفاء هو يجازيك علانية » ··· اننى مشفق عليك يا أخى الحبيب ، تجاهد طويلا فى سبيل فضيلة معينة ، وفى لحظة طيش ، من لحظات البر الذاتى اللعين ، يأتى الشيطان ويسلب كل جهادك منك ، فاذا تعبك كله قد ضاع باطلا ·· كلما أراك تتحدث عن نفسك ، يخيل الى أنك شخص زرعت زرعا ، فلما أنماه الله وأتى ثمره ، بدلا من أن تحصده وتفرح به أشعلت فيه النار ، أو تركت الشيطان يحصده نيابة عنك ! يا صديقى العزيز ، كلما أحسست رغبة فى التحدث عن نفسك ، دع ذلك القول الالهى يرن فى أذنيك « الحق أقول لكم انهم قد استوفوا أجرهم » (متى ٦ : ٢) ·

٤ ـ هناك ضرر آخر من حديثك عن نفسك ربما توضحه لك الحادثة الآتية : كنت فى احدى المناسبات أتكلم فى حماسة واعجاب عن شخص مبارك أحبه وأقدره ، فقاطعنى أحد أساتذتى الروحيين قائلا : « أرجوك ، لا تكمل هذا الكلام · انك بهذا الحديث تجمع الشياطين حوله لتحاربه · أتركه يعمل فى هدوء · انه ما يزال مبتدئا وفى حاجة الى صلوات كثيرة » · فسكت وقد شعرت فعلا أننى أخطأت فى حق هذا الانسان · الشياطين لا تطيق أن تسمع عن أعمال طيبة لانسان · ان اتخذك الله وسيلة لعمل مجيد ، فليكن ذلك سرا بينك وبين الله · لا تتحدث عن هذا العمل لئلا تتعرض

لحسد الشياطين وقتالهم · ولا يضيع أجرك فحسب ، وانما قد تتعرض لحرب قاسية لا تعرف نتائجها ·

٥ ـ أرأيت اذن بعضا من الضرر الذى يحيق بمن يتحدث عن نفسه ؟ آتستطيع أن تدلنى ـ فى مقابل ذلك ـ عن فائدة واحدة تجنيها من مديحك لذاتك ؟ لست أقصد تلك النزوة الحسية الخاطئة التى يشعر بها كل من يلمح نظرات الاعجاب موجهة اليه ، فهذه فى حد ذاتها خطيئة تحتاج الى علاج !! هناك فائدة حقيقية أعرضها عليك : ان ألح عليك الحديث عن نفسك الحاحا لم تستطع له مقاومة ، فحدث الناس عن ضعفك وعجزك ، حدثهم عن نفسك الساقطة التى لولا معونة الله لأشبهت أهل سدوم ، واطلب اليهم بالحاح أن يصلوا من أجلك حتى يفتقدك الله برحمته ·

٦ ـ كلمة صريحة أخرى · ترددت طويلا قبل أن أهمس بها فى أذنك ، وهى أنه حتى الناس أنفسهم يشمئزون أحيانا ممن يتحدث كثيرا عن نفسه · انهم يسمونه أحيانا (المنتفخ) أو (المغرور) · وهكذا لا يكسب مثل هذا المادح لذاته سماءا ولا أرضا ·

٧ ـ أخيرا فان تلك الأعمال التى تحاربك بالبر الذاتى ليست كلها من صنعك : هناك الظروف المحيطة ، والدور الذى قام به الآخرون ، والامكانيات التى منحت لك من فوق · انها تكون مبالغة بلا شك أن تنسب كل هذا الى نفسك فقط ناسيا عمل الله فيك ·

أتراني ضايقتك بصراحتى يا أخى الحبيب ؟ سامح ضعفى مصليا من أجلى ·

ومـرة أخرى يا أخى الحبيب ، أريد أن أحدثك عن ذاتك ، ذاتك التى تحبـها وتثق بهـا أكثـر مـن الله أحيـانا · ان لم تنكر هـذه الذات فهيهات أن تتمتع بجمـال انطـلاق الروح ·

ذاتــك أمــام اللــه

ان كانت المحبة هى الوصية الأولى فى المسـيحية ، فان انكار الذات هو الطريق الأول الى المحبة · انك لا تستطيع مطلقا أن تحب الله والناس ، طالما أنت تهتم بذاتك ولذاتك · لذلك عليك أن تنطلق أولا من هذه الذات ، فقد قال السيد له المجد : من أراد أن يتبعنى فلينكر ذاته ويحمل صليبه ويتبعنى (مر ٨ : ٣٨) ··· وهكذا جعل انكار الذات أول كل شىء ·

ليكن هدفك اذن يا أخى الحبيب هو اخفاء ذاتك فى الله ، بحيث لا يكون لك وجود مسـتقل عنـه ، ولتقل كمـا قال معلمنا بولس الرسول : « لكى أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فى » (غل ٢ : ٢٠) ·

ان أردت أن يكون لك مجد ، فليكن مجدك من الله وعند الله · كرر هـذه الآية دائمـا : « مجدنى أنت أيها الآب عنـد ذاتك » (يو ١٧ : ٥) · لا تبحث عن مجدك فى العالميات « فالعالم يبيد وشهوته معه » أما أنت فابن الله ، وأما أنت « فهيكل الله وروح الله حال فيك » ، لست من دم ولا مشيئة جسد ولا مشيئة رجل بل من الله

ولدت » ، روحك نفخة من الله ، نسمة من فيه ··· وأنت فى كل قداس تتناول جسد الله ودمه ، والله يريدك أن تتحد به ، تثبت فيه ، فلماذا اذن تترك هذا المجد العظيم كله ، وتبحث عن مجدك فى التراب ؟

لماذا يهمك رأى الناس فيك ، فتسر بمديحهم · وتدافع عن نفسك ان هاجموك ، وتتسول رضاهم بحديثك عن نفسك ؟ أما زلت يا أخى تحب التراب ومجد التراب ؟ أما زالت نفسك تمثالا تقدم له الذبائح والقرابين ـ انكر ذاتك ، وركز محبتك كلها فى الله وحده · قل كما قال يوحنا المعمدان « ينبغى أن ذاك يزيد وانى أنا أنقص » (يو ٣ : ٣٠) · أتتهامس فى تذمر وتقول « لا أريد أن أنقص » · اعلم اذن أنك سوف لا تنقص الا الشوائب التى تعكر نقاوة عنصرك ، سوف لا تنقص الا المجد العالمى ، ذلك التراب الذى علق بك ، والذى ينبغى أن تنفضه لترجع نظيفا كما خلقك الله وكما يريدك دائما أن تكون ·

هذا من جهة علاقتك بالناس ، ولكنى أريد أن أخاطبك أيضا من جهة نظرتك الى نفسك وموقفك أمام الله · ان أردت لروحك أن تنطلق فقف أمام الله كلا شىء ، انكر علمك وحكمتك ، انكر ذكاءك وخبرتك ، وقف أمام الله كجاهل لا تعرف شيئا · لست أقصد أن تدعى الجهل أو تتظاهر به ، فالله لا ينخدع ولا يحب المدعين ، انما اعتقد يقينا ـ فى تصريف كل أمر ـ أن ذاتك ينبغى أن تختفى ليظهر المسيح ، ليس أمام الناس فحسب ، وانما أمام نفسك أيضا · قل له يا رب انى أحكم حسب الظاهر ، وقل له يا ربى انى ضعيف لا استطيع مقاومة الشياطين · قل له أيضا ان النتائج فى يده ، واطلب منه أن يتدخل فيرشدك ، أو يسكن فيك ويعمل بك · وعندما يتم الأمر اشكر الله لأنه هو الذى عمل وليس أنت · وعندما يأتى الناس ليمدحوك على فعلك ، لا تفتخر ولا تتظاهر بالتواضع ، انما اتخذها فرصة أن تجلس معهم وترنم

ذلك المزمور الخالد « لولا أن الرب كان معنا ، فليقل اسرائيل لولا أن الرب كان معنا ، حين قام الناس علينا ، لا بتلعونا ونحن أحياء ٠٠٠ اذن لغرقنا فى الماء وجازت نفوسنا السيل » (مز ١٢٣)

وعندما تعرض لك خطية ، لا تثق بقوة روحك ، ولا بماضيك فى الانتصار « فقد طرحت كثيرين جرحى وكل قتلاها أقوياء » (أم ٧ : ٢٦) انما اعتقد أن النصرة من عند الله ، وان تخلى عنك فى أبسط الخطايا فسوف تشبه أهل سدوم ٠ انما رتل ذلك المزمور الجميل ٠ « ٠٠٠ وأنت عرفت سبيلى ٠٠٠ فى الطريق التى أسلك اخفوا لى فخا ٠ نظرت الى اليمين وأبصرت وليس من يعرفنى ٠ ضاع المهرب منى وليس من يسأل عن نفسى ٠ فصرخت اليك يا رب وقلت أنت هو ملجأى ورجائى فى أرض الأحياء ٠٠٠ نجنى من مضطهدى لأنهم قد اعتزوا أكثر منى » (مز ١٤١) ٠

يا أخى الحبيب ٠ انك لست شيئا ، فاعترف بهذا أمام الله وأمام نفسك ، وكلما فكرت أنك تستطيع عمل شىء ، ارجع الى ذاتك مرة أخرى ، وقل : من أنا يا رب حتى أقف أمام فرعون واخرج بنى اسرائيل من مصر ! (خر ٣ : ١١) فان أقنعك الله بأنه سيكون لك فما ، وأنه سيتكلم على لسانك ، وأنك سوف لا تكون الا أداة ، حينئذ استمر فى حياتك ٠ ان سرت فى وادى ظل الموت فسوف لا تخاف شرا ، وان قام عليك جيش ففى ذلك ستكون مطمئنا ٠ حينئذ أذكرنى أنا التراب النجس ، لكى نتقابل معا ، هناك ٠٠٠

إنطلق من رغباتك الأرضية

هل تعرف من أى شىء يجب أن تهرب ؟ اهرب من الاغراض ، من الآمال ، من الرغبات اهرب من كل أولئك ، ان كنت تود حقا أن تصل الى انطلاق الروح ٠

اسمح لى يا اخى الحبيب أن أدخل قليلا الى قلبك ، وأتحدث اليك فى صراحة ٠ ان لك آمالا عريضة تشغلك كثيرا ، وتحتل جانبا من قلبك بل هى تحتل خيالك أيضا فتجلس فى وحدتك وتحلم بها أحلام اليقظة ، تأوى الى فراشك فترى هذه الآمال فى نومك ٠ لك أهداف أنت أدرى الناس بها ، ولست مستطيعا أن تنكرها ٠ انك تود أن تكون شيئا هاما ، تود أن يعرفك الناس ، ويبجلوك ٠ لك آمال فى الشهرة والصيت ، ولك آمال فى السيطرة والنفوذ ، ولك رغبات فى المال ، وفى المركز الاجتماعى ، وفى العلم ، وفى الألقاب ، وفى المستقبل ، وفى المظاهر والسمعة ٠ ولك رغبات فى المسكن والمأكل والملبس ، ولذات الجسد المنوعة ٠ انك لا تعيش فى العالم بل العالم هو الذى يعيش فيك ، ويستولى على قلبك وفكرك وخيالك ومشيئتك أيضا ٠ أما روحك التى تعيش حبيسة فى هذا كله فانها تود الانطلاق من رغبات جسدك ، الجسد الذى « يشتهى ضد الروح » ٠

انك يا أخى الحبيب تشقى بهذه الآمال والأغراض ، فهى لا تتحقق جميعها ، ولذلك فأنت غير راض ٠ انك تشتاق وتشقى فى اشتياقك ولذلك فأنت تعد العدة ، وتلتمس الوسائل : تفكر ،

وتقابل ، وتكتب ، وتسير وتذهب ، وتسعى وتتعب فى سعيك ٠ ثم أنت تجلس وتنتظر ، وقد يضيق صدرك ، وتمل الصبر والترجى ، ويدركك اليأس أو القلق أو خوف الفشل ، فتشقى بانتظارك ٠ وقد ينتهى السعى والتعب الى لا شىء وتحرم من رغبتك التى تودها فتشقى بالحرمان ٠ وأخطر من هذا كله ، فان آمالك وأغراضك قد تجنح بك عن طريق الصواب فتتعلم بسببها الخداع ، أو اللف والدوران ، أو التزلف والتملق ، أو الكذب ، أو ما هو أبشع من هذا ٠٠٠ وكما قال أحد الحكماء « لابد أن ينحدر المرء يوما للنفاق ، ان كان فى نفسه شىء يود أن يخفيه » ٠

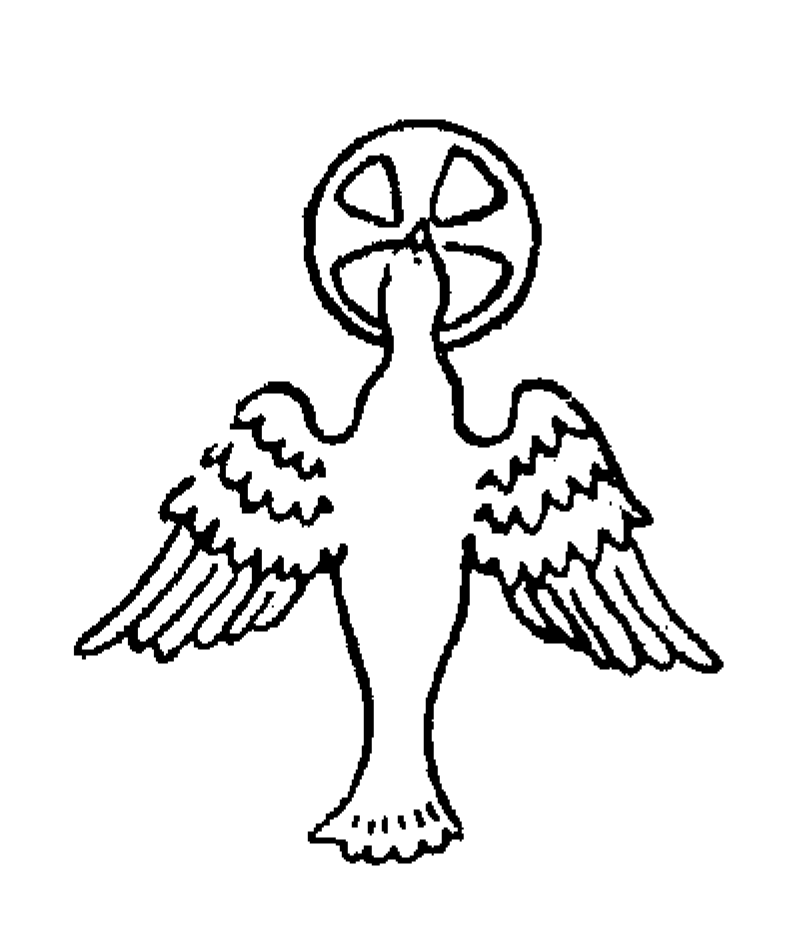
انك متعب ، وأنا أعرف هذا وأشفق عليك فى تعبك ٠ فالى متى تعيش فى جحيم الآمال ! والعجيب فى رغباتك الترابية هذه ، أنها تشقيك أيضا حتى اذا تحققت ٠ فرغبتك عندما تتحقق تتلذذ بها ، وتقودك اللذة الى طلب المزيد ٠ وهكذا كما قال السيد المسيح : « من يشرب من هذا الماء يعطش » (يو ٤ : ١٣) ٠ وعندما يعطش سيسعى الى الماء مرة أخرى ليشرب ، وكلما يشرب يزداد عطشا ، وكلما يزداد عطشا ، يزداد اشتياقا الى هذا الماء ٠

لذلك يا أخى الحبيب أود أن أناقش معك الأمر فى هدوء ٠ لماذا تتمسك برغبات معينة فى العالم ، والعالم يبيد وشهوته معه ٠ انك غريب مثلى على الأرض ، وستأتى ساعة تترك فيها هذا العالم وتترك فيه كل ما أخذته منه ٠ عريانا خرجت من بطن أمك وعريانا تعود الى هناك ٠ ستترك رغما عنك كل ما فى العالم من عظمة ومال وشهرة وتتوسد حفرة كأحقر الناس ، ومهما بلغت فى العالم من سطوة أو متعة أو شهرة ، فان هذا سوف لا يمنع جسدك الفانى من التعفن ، وسوف لا يمنع الدود من أن يرعى فى جثتك حتى يأتى عليها ٠ وستقف بعد هذا كله أمام الله مجردا من مظاهر العالم المنوعة ، لم تأخذ من الدنيا غير أعمالك ، خيرا كانت أم شرا ٠ فحرام عليك يا أخى الحبيب أن تركز أغراضك وآمالك فى هذه

الأرض ، الأرض التى تنبت لك شوكا وحسكا ، والأرض التى قبلت دماء هابيل البار ، والأرض التى يحفرون فيها آبارا مشققة لا تضبط ماء ٠ (أر ٢ : ١٣) ٠

ان الآباء القديسين الذين عاشوا قبلنا على الأرض ، ولم تكن الأرض مستحقة أن يدوسوها بأقدامهم ، هؤلاء جميعا لم يصلوا الى ما وصلوا اليه من قداسة ، الا بعد أن فرغوا قلوبهم من حب العالم والأشياء التى فى العالم ، فلم تعد لهم على الأرض رغبة أو شهوة ، ولم يحتفظوا فيها بقنية أو ملك ٠ لم يتمسكوا بشىء فى العالم لذلك سهل عليهم أن يتركوه ، بل اشتاقوا الى ذلك اشتياقا ٠

أما أنت يا أخى الحبيب فلك رغبات أرضية ، « وحيثما يكون كنزك يكون قلبك أيضا » ٠ لذلك تعلق قلبك بالتراب ومجد التراب ، فقلت قيمة الروحيات فى نظرك ٠ انها التجربة التى حاول بها الشيطان اغراء رب المجد « أخذه الى جبل عال جدا وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له أعطيك هذه جميعها أن خررت وسجدت لى » ٠ وان ملكت هذه جميعها ماذا تستفيد ان خسرت روحك ، روحك الحبيسة فى قفص مذهب من الرغبات ، وتود أن تنطلق ٠



إنطلق من سلطان الحواس

انك تؤمن بحواسك الخمس أيمانا شديدا ولا تصدق روحك ان تعارضت مع هـذه الحواس فمتى تنجو من سلطـان حواسـك وتدرك انطـلاق الروح ٠

انك تصدق الشيء الذى تراه بعينيك ٠ أو تسمعه بأذنيك ، أو تلمســه بيديك ٠٠٠ أما غير هــذا فقـد يعتريك فيــه الشك ، فلماذا !! السبب بسيط ، وهو أنك ما تزال عائشـا بالجسـد ، تؤمن بالجسد وحواســه ٠

انك تنظر هنا وهنــاك ، فترى أنه ليس من أحد ، ليس من مشاهد ولا من رقيب ٠ فترتكب الخطأ الذى تتحاشى ارتكابه أمام الناظرين ، فهل تصدق حقا أنه لم يرك أحد ٠ ! لقـد كان هناك عينان تنظران اليك فى اشفاق ، وفى تأنيب ٠٠٠ ولكنك لم تبصر هاتين العينين لأنك كنت تعيش فى الجسد ٠٠٠ كان الله يراقبك وأنت لا تراه ولو كنت تعيش بالروح منطلقـا من هــذه الحواس القاصرة لا ستطعت أن تقول ما قاله ايليا : « حى هو رب الجنــود الذى أنا واقف أمامه » (امل ١٨ : ١٥) ٠

تحيط بك المخاطر فتلتفت عن يمين وعن يســار ، واذ ترى نفســك وحيــدا تخاف وترتعب ٠ ان الله واقف عن يمينك لكى لا تتزعزع ، ولكنك لا تراه ٠ عيناك قاصرتان لا تبصران كل شيء ٠

انهما عينان ماديتان لا تدركان الروحيات · ليتك يا أخى الحبيب تطلق روحك مـن سلطان هذه الحاسـة الجسـدية ، روحك التى تفحص كل شيء حتى أعماق الله (اكو ٢ : ١٠) ، ليت روحك تنطلق لترى الله عن يمينك وتهمس فى أذنه فرحا « ان سرت فى وادى ظل الموت لا أخـاف شرا لأنك أنت معى » (مز ٢٣) · كان جيحزى المسكين خائفا جدا وهو يرى بعينيه الأعداء يقتربون وليس من منقذ · أما اليشع العائش بالروح فكان مطمئنا · كان يرى بالروح ما لا تراه العين ، ويسمع مالا تسمعه الأذن · واذ أشفق على الغلام ، طلب من الله أن يفتح عينيه ليرى ··· ونظر جيحزى فاذا الجبل زاخر بجنود الله ومركباته فاطمأن (٢ مل ٦ : ١٧) ·

لا تعتمد على حواسك فهى ضعيفة لا تدرك ما تدركه الروح · كانت أرملة صرفة صيدا تنظر الى الكوار فترى فيه حفنة واحدة من الدقيق ، والى الكوز فترى فيه قليلا من الزيت ، وترى أن هذا الدقيق وهذا الزيت لا يكفيان الا لصنع كعكة واحـدة تأكلها مع ابنها ثم يموتان من الجوع · أما ايليـا ، رجـل الله ، فكان يرى بالروح غير ما تراه العيـون الجسـدية : كان يرى كـوز الزيت لا ينقص مهما أخذت منه الأرملة وكذلك كوار الدقيق ··· وقد كان · (امل ١٧ : ١٤) ·

كان أليشع واقفا على شاطىء الأردن · عينه الجسدية ترى الأردن نهرا ، وترى السير فيه يؤدى حتما الى الغرق · أما روح اليشع فكانت منطلقة من هذه العين القاصرة · كان نهر الأردن والشاطىء بالنسبة اليها سواء · كلاهما أرض صالحة للسير · أخذ اليشع رداء ايليا الذى سقط عنه عندما استقل المركبة النارية ، وضرب الماء بهذا الرداء فانفلق الماء وعبر اليشع (٢ مل ٢ : ١٤) · ان العين العادية ترى ثوب ايليا ثوبا ، أما اليشع فكان يراه بالروح قوى عجيبة يستخدمها الله ·· ولم يكن فى نظره ثوبا كباقى الثياب·

ان عينك قاصرة يا صديقى حتى فى الماديات • هنـــاك أجسام لا تراها ، ومع ذلك فهى موجودة تتحدى بصرك الضعيف ، وربما تستطيع أن ترى هذه الأجسام الصغيرة باستعمال المجهر •

فاذا لم يكن هناك مجهر ، ولم تر عينك المجردة تلك الأشياء الدقيقة ، أتستطيع أن تنكر وجودها لأنك لا تراها • ! فان كان هذا فى الماديات . فماذا تقول عن الروحانيات •

فى الأمور الروحية أترك فرصة للروح لكى تقودك ، ولا ترغمها على الخضوع للجسد ، أتركها على سجيتها تنطلق وتسبح فى عالم الالهيات « وطوبى لمن آمن دون أن يرى » (يو ٢٠ : ٢٩) •

لابد أنك سمعت عن الرؤى يا أخى الحبيب ، حينما تسبح الروح فى عالم الملائكة والقديسين وترى ما لا يراه الجسدانيون ، هنا نرى الروح منطلقة من سلطان الجسد ، تستخدم أعضاءه فى أغراضـــها الروحيـــة ، فتخضـــع الحواس للروح ، وليس الروح للحواس •

قال لى شخص انه سمع بظهور مارجرجس فى احدى الكنائس، فرفض أن يصدق ، وذهب بنفسه الى هناك ليتأكد بعينيه من فساد تلك (الخرافات) وفعلا ذهب ولم ير شيئا •

لست أريد أن أعلق على هذه القصة بشىء ، ولكنى أعرض رأيا وهو أن هذا الشخص وأمثاله قد لا يرون الرؤى لضعف ايمانهم بها ، لأنهم يريدون اخضاع الروحيـــات لحـــواس الجســـد ، بينما يكشف الله للبسطاء عن أسرار ملكوته •

لست أريد شيئًا من العالم

هذا هو أول شيء يجب أن يقوله الانسان الذى يحب أن يصل الى انطلاق الروح :

لست أريد شيئا من العالم ، فليس فى العالم شىء أشتهيه ، انها تجارب تحارب المبتدئين ٠

لست أريد شيئا من العالم ، لأن العالم أفقر من أن يعطينى لو كان الذى أريده فى العالم ، لا نقلبت هذه الأرض سماءا ، ولكنها ما تزال أرضا كما أرى ، ليس فى العالم الا المادة والماديات، وأنا أبحث عن السماويات ، عن الروح ، عن الله ٠

لست أريد شيئا من العالم ، فأنا لست من العالم ، لست ترابا كما يظنون ، بل أنا نفخة ألهية ، كنت عند الله منذ البدء ، ثم وضعنى الله فى التراب ، وسأترك هذا التراب بعد حين وأرجع الى الله ٠ لست أريد من هذا التراب شيئا ، من عند الآب خرجت وأتيت الى العالم ، وأيضا أترك العالم وأرجع الى الآب ٠

لست أريد شيئا من العالم ، لأن كل ما أريده هو التخلص من العالم ٠ أريد أن أنطلق منه ، من الجسد ، من التراب ! وأرجع ـ كما كنت ـ الى الله ، نفخة « قدسية » لم تتدنس من العالم بشىء ٠

لست أريد شيئا من العالم ، لأنى أبحث عن الباقيات الخالدات، وليس فى العالم شىء يبقى الى الأبد ، كل ما فيه الى فناء ، والعالم نفسه سيفنى ويبيد . وأنا لست أبحث عن فناء .

لست أريد شيئا من العالم ، لأن هناك من أطلب منه . هناك الغنى القوى الذى وجدت فيه كفايتى ولم يعوزنى شىء . انه يعطينى قبل أن أطلب منه ، يعطينى النافع الصالح لى . ومنذ وضعت نفسى فى يده لم أعد أطلب من العالم شيئا ...

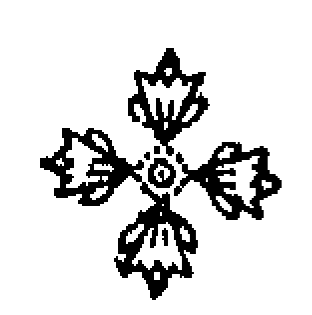
لست أريد شيئا من العالم ، لأن العالم لا يعطينى لفائدتى ، وانما يعطى ليستعبد . والذين أخذوا من العالم صاروا عبيدا له ، يعطيهم لذة الجسد ، ويأخذ منهم طهارة الروح . يعطيهم متعة الدنيا ، ويأخذ منهم بركة الملكوت . يعطيهم ممالك الأرض كلها ليخروا ويسجدوا له . يعطيهم كل ما عنده لكى يخسروا نفوسهم . أما أنا فقد خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية لكى أربح المسيح (فى ٣ : ٨) . وهذا العالم الذى يأخذ أكثر وأفضل مما يعطى ، هذا العالم الذى يستعبد مريديه ، لست أريد منه شيئا ..

لست أريد شيئا من العالم لأننى أرقى من العالم . اننى ابن الله ، صورته ومثاله . اننى هيكل للروح القدس ومنزل لله . اننى الكائن الوحيد الذى يتناول جسد الله ودمه . اننى أرقى من العالم ، وأجدر بالعالم أن يطلب منى فأعطيه ، أنا الذى أعطيت مفاتيح السماوات والأرض . أنا الذى شاء الله فى محبته وتواضعه أن يجعلنى نورا للعالم وملحا للأرض (متى ٥) .

لست أريد شيئا من العالم لانني أريد ان احيا كآبائى ، الذين لم تكن الأرض مستحقة أن يدوسوها بأقدامهم · هكذا عاشـوا ، لم يأخذوا من العالم شيئا بل على العكس كانوا بركة للعالم · من أجل صلواتهم انزل الله الماء على الأرض ، ومن اجلهم أبقى الله على العالم حياة حتى اليوم ···

لست أريد شيئا من العالم لأن الخطية قد دخلت الى العالم فأفسدته · فى البدء نظر الله الى كل شىء فرأى أنه حسن جدا ، اذ لم تكن الخطية دخلته بعد ، حتى التنين العظيم فى البحر باركه الرب ليثمر ويكثر ، أما الآن وقد تشوهت الصورة البديعة التى رسمها الله فى الكون فقد مجت نفسى العالم ، ولم أعد أشتهى فيه شيئا ، هذا العالم الذى أحب الظلمة أكثر من النور ·

لست أريد شيئا من العالم ، لأنى أريدك أنت وحدك ، أنت الذى أحببتنى حتى المنتهى ، وبذلت ذاتك عنى · أنت الذى كونتنى اذ لم اكن ، ولم تكن محتاجا الى عبوديتى بل أنا المحتاج الى ربوبيتك · أريد أن أنطلق من العالم وأتحد بك ، أنت الذى أعطيتنى علم معرفتك ·



من الناس من هم جهلة لم يتعلموا
على الاطلاق ، ومنهم من قد علمهم
النـاس وهؤلاء أشد جهـالة ، أما
المتعلمـون الحقيقيون فهـم الذين
تعلموا من الله مباشرة ·

التعلم من الله

لقد خلق الله الانسان على جانب وافر من المعرفة · وعندما كان الانسان يحتاج الى مزيد من العلم ، كان الله يعلمه بنفسه ، ولو استمر الانسان هكذا لصار عالما ، ولا ستطاع أن يأكل من شجرة الحياة ويحيا الى الأبد ، ولكن الانسان قبل لنفسه أن يتلقى العلم على غير الله فبدأت جهالته ، وهكذا أخذ أول درس له عن الحية وأكل من (شجرة المعرفة) فصار جاهلا ·· وما زال الانسان يسعى الى المعرفة بعيدا عن الله ، فيزداد جهالة على جهالته ·

ان الانسان هيكل الله ، وروح الله ساكن فيه ، هذا الروح الذى قال عنه السيد المسيح : « يرشدكم الى جميع الحق » (يو ١٦ : ١٣) · والذى قال عنه القديس بولس الرسول انه : « يفحص كل شىء حتى أعماق الله » (١ كو ٢ : ١٠) · ولكن الانسان من فرط شقاوته وجهله ، كلما يبحث عن المعرفة ، لا يطلب أخذها من داخله ، من روح الله الساكن فيه ، وانما يفتش عنها فى الخارج عند الناس ، وفى الكتب التى يظن أن له فيها حياة ··· !

وهكذا كثر العلمــاء وحكماء هذا الدهر ، وكانت حكمة هذا العالم جهالة عند الله ، ولقد سار أوغسطينوس العظيم فى هــذا الطريق فترة طويلة ، يبحث عن الله خارجا عن نفسه فلا يجده ، ثم وجده أخيرا فناجاه بتلك الأنشودة الخالدة :

« قد تأخرت كثيرا فى حبك أيها الجمال الفائق فى القدم والدائم جديدا الى الأبد » ٠

« كنت فىّ فكيف ذهبت أبحث عنك خارجا عنى ٠٠٠ »

« أنت كنت معى ، ولكنى لشقاوتى لم أكن معك ٠٠٠ »

ولما بحث اوغسطينوس عن الله فى داخله ، وجــده وصــار قديســـا ٠٠٠

وهكذا أنت يا أخى الحبيب ستضل كثيرا فى بحثك عن الله ، ان بحثت عنه فى الخارج ٠ اجلس الى نفسك وفكر وتأمل ، وادخل الى أعماق أعماقك ، واطلب الله ، فستجده هناك ، وستراه وجها لوجه ، وتحسه كنبع دافق فياض من المحبة ، فتعيش فى فترة من الدهش العجيب وتصرخ فى فرحة صامتة « لقد رأيت الله » ٠

هذه هى الطريقة التى لجأ اليها آباؤنا القديسون ، خرجوا من زحمة الحياة ، ومن اضطراب العالم وصخبه ، وتركوا كل شيء ، وبحثوا عن الله فى داخل نفوسهم ، وهكذا بالهذيذ والتأمل استطاعوا أن يروا الله ، وفى نفس الوقت كان المفكرون والفلاسفة والباحثون والعلماء يفتشون عن الله فى الكتب وعند الناس ، فلا يصلون الا الى جهالة وغموض وتعب ٠٠ أقول هذا وأنا متألم ، لأننى أرى أيضا كثيرا من الآباء الذين ذهبوا الى القفر ، قد أخذوا هم أيضا يفتشون

عن الله فى الكتب أو فى المشروعات أو فى الخدمة ، بينما الله فى قلوبهم من الداخل ، يريدهم أن يفرغوا من هذه المشغوليات كلها ويجلسوا اليه فيحدثهم عن أسرار لا يعرفها أحد ، ويريهم ما لم تره عين ٠

ليس هذا بالنسبة الى الرهبان فحسب ، وانما الى الجميع ٠٠ أتدرى يا أخى الحبيب ما هى الطريقة الصالحة للتربية الروحية ؟ انها ليست فى اعطاء الانسان شيئا جديدا ، فهو يملك كل شىء ٠ والروح الحال فيه يعرف أكثر مما تريد أنت أن تعلمه ٠٠٠ انما الوسيلة الصالحة للتربية الروحية هى فى تخليص الانسان مما يملك من معلومات خاطئــة ، من معرفة أخذها من العــالم أو من النــاس ٠

ان الطفل يولد وفى قلبه وفى فكره وفى خياله فكرة واســعة جميلة عن الله ، ثم يتولاه المجتمع المســكين بالتعليم ، فيقدم له أفكارا عن الله غير أفكاره ، ويقدم له صورا عن الله وعن القديسين تحد من خيال الطفل الواسع ٠٠٠ وهكذا تتبدل فكرة الطفل عن اللهوعن القداسة بمصطلحات عرفية عن الخير والشر ، كما يراها الناس ، ويأكل الطفل من شجرة معرفة الخير والشر ، التى أكل منها آدم وحواء ٠ ويصير مثلهما جاهلا ، ويأتى دور المرشــدين الروحيين الحقيقين ، لا لكى يزيدوا على الطفل علما ، وانما لينزعوا منه المعرفة الباطلة التى أخــذها من العرف والتقــاليد وتفسيرات الناس للدين ٠ وعندما تنطلق روحه من هذا كله يعرف الله على حقيقته ، لأن الله ليس غريبا عنه ، بل هو ساكن فيه ٠





انطلق من حب التعليم

حب التعليم خطر كبير ٠٠٠ ابتعد عنـه يا أخى الحبيب حيثما وجـد واهرب منه على قدر ما تستطيع ٠

انك تريد أن تعلم النـاس ، ولكن أى شيء تريد أن تعلمهم ؟

ألست معى يا أخى العزيز فى أننا لم ننضج بعـد ، ولم نتعلم بعد ؟ هناك أشياء نفهمها من وجهة نظر واحدة فنسيء فهمها ٠ وعندما ندفع بأنفسنا لتعليم الناس ، لا نعلمهم الدين كما هو ، وانما كما نفهمه نحن ، وفى سن معينة ، ودرجة روحية وعقليـة معينة ٠ وقد نكبر فى السن والروح والعقل ، ونفهم الدين فهما آخر غير فهمنا له اليوم ، فماذا يكون من أمر الناس الذين علمناهم قبـلا ؟!

لذلك ولغيره يقـول القديس يعقـوب الرسـول فى رسالته « لا تكونوا معلمين كثيرين يا اخوتى ٠ عالمين أننـا نأخـذ دينونة أعظم ، لأننا فى أشياء كثيرة نعثر جميعا » (يع ٣ : ١ و ٢) ٠

وهكذا نسـمع أرميـا يقول لله « لا أعرف أن أتكلم ، لأنى ولد » (أر ١ : ٦) ٠ ويقول اشعياء النبى عن نفسه انه « انسان نجس الشفتين » (أش ٦ : ٥) ٠ ونجـد القديس باخوميوس يأتون اليـه يطلبون كلمـة تليق ، فلا يتحدث ، ولكن يدفع اليهم بتلميذه تادرس فيتحدث روح الله على لسان هذا التلميذ القديس ٠٠

واحد الآباء وهو شيخ ، يأتى اليه أخ ليأخذ تعليما فيقول له : « أمكث فى قلايتك وهى تعلمك كل شىء » فيرجع الأخ منتفعا .. قصص كثيرة ، اقرأها يا أخى بنفسك ، وانظر أى درس يعطيك الله عن طريقها . ولى ملاحظة قبل أن أترك هذه النقطة وهى ان تعاليم كثيرة للآباء القديسين وصلت الينا عن أحد طريقين : اما أن الأب الشيخ كان فى أثناء حديثه مع الأخوة ، يتناول راهب ورقة ويدون ما يقوله الشيخ ، واما أن الأب كان يسجل تأملات له لمنفعته ، فيجدونها فى قلايته بعد نياحته وينتفعون بها .

هناك يا أخى الحبيب فرق شاسع جدا بين التعليم وحب التعليم : التعليم دعا اليه الكتاب المقدس ، وعهد به الى أشخاص معينين ، أما حب التعليم ففيه خطر كبير ، فى أحيان كثيرة يكون شيطانا متنكراً ... مع حب التعليم يأتى فى كثير من الأحيان احساس خفى أو ظاهر بالجدارة الشخصية ، وبالامتياز عن الآخرين ، وكلما يتسع عند الشخص نطاق التعليم كلما يكبر عنده هذا الاحساس ، حتى ليدخل الى الكنيسة أحيانا لا لينتفع ، بل لينقد ويقيم من نفسه معلما للمعلمين . انه لا يأخذ أبدا ، وانما يعطى باستمرار ، ومثل هذا الشخص الذى لا يأخذ يأتى عليه وقت يجف فيه ، ولا يعد لديه شىء ليعطيه ..

أما الآباء فكانوا على عكس هذا تماما . كانوا يتعلمون باستمرار ويأخذون نفعا من كل شىء . كان القديس انطونيوس العظيم يأخذ تعليما من امرأة « لا تستحى أن تخلع ثيابها لتستحم ، أمام راهب » . والقديس مكاريوس أب برية شيهيت كلها يأخذ تعليما من صبى صغير . وارسانيوس الذى درس حكمة اليونان والرومان يتعلم من مصرى أمى » . هؤلاء الآباء كانت أرواحهم تطوف كالنحلة النشيطة فتجنى من كل زهرة شهدا !

هناك خطورة أخرى فى حب التعليم ، ذكرنى بها انسان غيور ، شغله التعليم عن نفسه : كان يقرأ فى الكتاب المقدس لا لينتفع ،

وانما ليحضر درسا . ويحسن الى الفقراء لا لأنه يحبهم وانما ليكون قدوة للناس . ويحترس فى تصرفاته لا لأنه يؤمن بما يفعله ، وانما لكى لا يعثر الآخرين . ويجلس الى الناس لا ليقتبس من أرواحهم شيئا وانما ليمتحن حديثهم « كأستاذ » ثم يلقى بحكمة شـارحا الأوضاع السليمة . بل قال مرة انه كان يقف للصلاة فاذا ما افتقده روح الله ، وشعر فى الصلاة بشىء ، أو سبحت تأملاته فى شىء ، يقطع صلاته ويجلس ليسجل هذه الاختبارات ليعلم بها الناس ! لقـد انقلبت وسائط النعمة عنـد هذا الانسـان ، وأصبح التعليم عنده هو كل شىء .

همسة أخرى أريد أن أهمسها فى أذنك الحبيبة الى قلبى وهى « أى شىء ستعلمه للناس ؟ أهو الدين ؟ هـل تظن الدين مجـرد معلومات يملأ بها الانسان عقله ؟ أخشى ما أخشاه يا صديقى المجاهد أن طريقة بعض الناس ستحول الدين الى علم يدرسونه ويمتحنون فيه كسائر العلوم ، وما الدين الا روح وحياة كما تعرف .

قال لى « ولكنى معلم فى الكنيسة فماذا أعمل ؟ » . قلت له « حية هى روحك يا أخى الحبيب . انك لا تعلم تلك النفوس وانما تحبها . وهذه الأرواح التى تراها منطلقة حواليك ، لم تطلقهـا التعاليم وانما المحبة ، المحبة التى « لا تسقط أبدا » لأنها الله ..





من الشعور بالامتلاك

كثيرون يدعـون أنهم أغنيـاء يملكون من قنية العالم أشياء كثيرة. أما أنت يا أخى الحبيب فقد تخلصت من الشعور بالامتلاك منذ أيقنت أن الملكية تقيد روحك.

لقد جئت الى العالم بلا شك فقيرا مثلى لا تملك فيـه شيئا عريانا خرجت من بطن أمك ، لا تملك الأقمطة التى قمطوك بها ، ولا الفراش التى أضجعوك عليها ، وكل ما (امتلكته) فى العالم بعد ذلك لم يكن فى الواقع الا عطية من الله . لم يكن ملكك وانما أمانة وضعها الله فى يدك لفترة محدودة هى فترة العمر ، وعندما تنقضى حياتك على الأرض ستخرج منها فقيرا كما أتيت ، وعريانا كما ولدت . أما قنية العالم التى ادعيت ملكيتها عندما كنت على الأرض والتى تركتها رغما عنك ، فسيدعى ملكيتها غيرك ، وينتقل من الأرض ليدعى ملكيتها ثالث ، وهكذا دواليك ..

انك لا تملك شيئا اذن ، حتى ذاتك . لم يكن لك ذات من قبل اذ لم يكن لك كيان أو وجود ، كنت عدما . ثم خلق الله ذاتك . وعندما سقطت وأصبحت هذه الذات ملكا للموت والهلاك ، عاد الله واشـتراها بدمه وافتداها لنفسـه . أنت اذن من كل ناحيـة لا تملك شيئا حتى ذاتك ، لذلك فالذى يخطىء الى ذاته يخطىء الى الله نفسه ، لأنه يفسد نفسا ملكا لله ، ويفسد جسدا سر الله بعـد

أن امتلكه أن يجعله هيكلا لروحه القدوس • وبالمثل من يخطىء الى الآخرين ، فانه مخطىء ضد الله نفسه عن طريق مباشر وغير مباشر • لقد أخطأ داود ضد أوريا الحثى وزوجته ومع ذلك قال لله « لك وحدك أخطأت » وليس السبب فى ذلك مخالفته لله فحسب ، وانما خطيئته أيضا ضد كائنين هما ملك لله •

ان شعرت بهذا يا أخى الحبيب أدركت خطورة الخطية فى وضعها الدقيق ، انك لا تملك ذاتك حتى تتصرف فيها تصرف الملاك فى أملاكهم •

أما من جهة المقتنيات فقد شرحنا كيف أنها جميعا ليست ملكك وانما هى عطية من الله • أنت مجرد انسان استؤمن عليها ليدبرها بأمانة كما يليق بوكيل صالح • وهذا التدبير سيسألك الله عنه عندما يقول أعطنى حساب وكالتك (لو ١٦ : ٢) •• من أجل هذا نجد ملكا غنيا جدا كداود ، يرى الأمور على حقيقتها فيقول : « أما أنا فمسكين وفقير » (مز ٦٩) لم يكن فقيرا حسب العرف البشرى الخاطىء ، ولكنه حقا لا يملك شيئا بحسب النظرة الروحية السليمة • ومن أجل هذا أيضا كنا نجد الآباء القديسين ينذرون الفقر الاختيارى ، وينظرون اليه كأحد الأعمدة التى تقوم عليها حياتهم الرهبانية •

وبهذا يمكنك أن تفهم الصدقة بمعناها الصحيح ، انك لا تعطى من مالك شيئا ، وانما أنت تعطى لخليقة الله من مال الله • الأمر اذن لا يدعو الى البر الذاتى أو الى الفخر ، ولا يدعو أيضا أن تفكر فى الابتعاد عن مدح الناس لك ، بأن تمدح نفسك بالتصدق تحت امضاء « فاعل خير » أعجبنى متبرع قرأت امضاءه فاذا هو : « فاعل شر يرجو الصلاة من أجله » •

ان الكائن الوحيد الذى يتصدق من ماله على الناس هو الله •

ولست أحب أن أسمى الصدقة فضيلة ، حيث أنهـا ليست فضلا أو تفضلا من المتصدق • وهو لا يعدو أن يكون ، كما قلنا ، موصلا لنعمة الله الى الآخرين ، وما يقال عن الصدقة يقال عن باقى الأعمال الحسنة التى لا يمكن أن تعتبر فضلا من أحد •

يلحق بالصدقة عنصر آخر وهو الشكر عليها ، كيف تقبل يا أخى أن يشكرك الناس على شىء لم تدفعه من عنـدك ، ان كان المال مال الله ، فكيف تشكر أنت عليه ، وكيف ترضى بقبول هذا الشكر ؟ أعط مجدا لله ، وتوار ليظهر هو ، فهو الذى عمل العمل كله •

ان الشعور بالامتلاك قيد يقيد روحك ، ويشعرك بمـا ليس فيـك حقيقة ، فاهرب منـه ليس انكارا لذاتك ، وانمـا اعترافا بحقيقتك وليكن الله معك •





من سلطان ذاتك

انطلق يا أخى من استعباد ذاتك لك لأنك ان وصلت الى اتفــاق مع نفسك ، وتحررت من الداخل ، فلن تســـتطيع كل الظروف المحيطة أن تؤثر عليك ، اذ تكون قد وصلت الى انطلاق الروح •

هل تحسب يا أخى الحبيب أن العالم له سلطان عليك ؟ وهل تظن أن العثرات والمغريات هى السبب فى سقوطك ؟ كلا • تخطىء كثيرا ان ظننت شيئا من هذا • فقد يكون للعالم أو مغرياته بعض التدخل ، ولكن السبب الأساسى الحقيقى لسقوطك هو ذاتك من الداخل •

لو لم تكن قابلا للخطية ، مرحبا بها ، أو محبا لها ، لو لم تكن هكذا ما سقطت •

لقد كان يوسف الصديق يعيش فى جو مشبع بالخطية ، وقد أحاطت الخطية فعلا بيوسف فى عنف • ولكنه لم يسقط ، لأن كل الاغراءات لم تستطع أن تدخل الى قلبه النقى • فانتصر على الخارج كله ، لأنه كان منتصرا فى الداخل •

لا تقل انى سقطت لأن العالم ملىء بالمغريات ، ولكن الأصح أن تقول : انك سقطت لأن فى قلبك حنينا الى تلك المغريات وقبولا لهـا ٠

اثنان يمران فى الطريق على حانة ، فلا يستطيع أحدهما أن يقاوم منظر زجاجات الخمر المعروضة ، فيدخل ويشرب ويسكر ، وأما الآخر فيمر على الحانة دون أن يشعر بوجودها أو بوجود الخمر فيها ٠ لا يراها معثرة ، ولا تترك فى نفسه أثرا ، ولا تغريه ، لسبب واحد : وهو أن قلبه خال من الحنين الى الخمر ، خال من محبتها ٠ قلبه نقى من الداخل لا تقوى عليه المؤثرات الخارجية ٠

انتصارك اذن فى حياتك الروحية يتوقف على عامل حيوى ، وهو نتيجة المعركة الداخلية بينك وبين نفسك ٠ ان استطعت أن تصلب ذاتك فى داخلك ، ستخرج الى العالم الخارجى بتلك العين البسيطة التى ترى الخير فى كل شىء ، والجمال فى كل شىء ، وكما يقول الرسول : « كل شىء طاهر للطاهرين » (تيطس ١ : ١٥)

بعض الناس يتحاشون الأوساط الخارجية المعثرة ، وهذا حسن وواجب ، لأن الله منعنا عن مجالس المستهزئين وطريق الخطاة ٠ ولكن الخطأ هو أن هؤلاء البعض يكتفون بتحاشى الأوساط الخارجية تاركين الحيوان الرابض فى أحشائهم كما هو فى شهوته للعالم والأشياء التى فى العالم ٠ أمثال هؤلاء قد يصادفهم النجاح بعض الوقت ، ولكن ما أسرع ما يسقطون عندما تضغط عليهم التجربة وتقحم الاغراءات ذاتها فى حياتهم ٠٠٠ هؤلاء يحبون الخطية وان كانوا لا يفعلونها ، والشخص الذى يحب الخطية قد يسقط فيها ــ ولو بعد حين ــ مهما تحاشاها ٠

أمثال هؤلاء يبتعـدون عن الشر ، ولكنهم يعتقدون فى نفس الوقت أن عملهم هذا تضحية منهم فى سبيل الله · انهم ـ كالخطاة تماما ـ مازالوا يعتقدون أن الشر لذيذ ، والخطية حلوة مشتهاة ، وما زالوا ينظرون الى الشجرة فيجدونها جيدة للأكل وبهجة للعيون وشهية للنظر ، ولكنهم يفترقون فى أمر واحد وهو أنهم لا يمدون أيديهم ليقطفوا · انهم لم ينتصروا فى الداخل ، ولم يسكن الله فى قلوبهم لذلك فهناك فى العالم ما يغريهم وما يعثرهم ، ففيه الخطية المحبوبة التى يشتاقون اليها ولكنهم يهربون منها خوف السقوط فيها ·

أستطيع أن أقول ان هؤلاء ـ من ناحية الفعـل ـ يطيعون وصايا الله ، وان كانوا لا يحبونها ولا يحبونه ·

مثل هذا النوع اذا استمر فى جهـاده قد يخلص كما بنار ، وقد لا يستطيع أن يستمر فى الجهاد فيسقط ويكون سقوطه عظيما ، لأن بيته ليس مؤسسا على الصخر · أما الوضع الصحيح الذى يكون فيه الروح منطلقا ، فهو عدم الاستعباد للخطية وعدم محبتها ، حيث يكون الانسان حرا من تأثير الشر عليه · (فالمغريات) فى نظر غيره ، ليست هكذا بالنسبة اليـه لأنهـا لا تغريه ، بل على العكس هو لا يتفق معها بطبيعته المقدسة ، لذلك فهو لا يتجاوب معها ، بل ينفر منها دون جهاد ودون تعب ، اذ قد ترك هذا الجهاد السلبى ، وأصبح جهاده سعيا فى سـبيل التعمق فى الروح وفى معرفة الله ·

ولكن الانسان ـ كما قلنا ـ لا يمكن أن يصل الى هذه الحالة ما لم يتنق من الداخل ، وينتصر فى حربه مع نفسه التى تشتهى ضد الروح · على الانسان أن يصل مع نفسـه الى اقتناع أكيـد بمرارة الخطية وبشاعتها ، وبحلاوة الله ومتعة الحياة معـه ·

وفى هذه الحرب الداخلية « يقمع الانسان جسده ويستعبده » (اكو ٩ : ٢٧) بل ويصلب فى ذاته رغباته وشهواته · لا يقيدها ويتركها تصرخ فتحنن قلبه بصراخها ووعودها ، وانما ينظر اليها بمنظار الله فيجدها حقيرة لا تستحق شيئا فينفر منها ··· وهكذا يقول مع الرسول « مع المسيح صلبت ، فأحيا لا أنا بل المسيح الذى يحيا فى » · (غل ٢ : ٢٠) · ألست ترى أن هذا بعضا مما يقوله السيد المسيح « من اراد أن يخلص نفسه يهلكها ومن يهلك نفسه من أجلى يجدها » (مر ٨ : ٣٥) ·

ولكن هذا الأمر لا يمكن أن يتم بدون معونة خاصة من الله لذلك فالجهاد مع النفس لابد أن يصحبه جهاد مع الله · جاهد يا أخى معه فى ضراعة مرددا قول اسرائيل البار « لا أتركك حتى تباركنى » (تك ٣٢ : ٢٦) · قل له أيضا : « تنضح على بزوفاك فأطهر ، وتغسلنى فأبيض أكثر من الثلج » (مز ٥٠) · وثق أنك اذا خرجت من هذه الحرب منتصرا فمن المحال أن تقوى عليك كل قوى الشر ولو اجتمعت ·

ولكنك ترى يا أخى الحبيب أن كل هذا يحتاج الى الخلوة ، ومن هنا كانت الخلوة عنصرا أساسيا فى حياة أولاد الله · استطاعوا بها أن يجلسوا الى نفوسهم ، وأن يجلسوا الى خالقهم ، وأن يخرجوا من هذا وذاك بأسلحة متجددة تعينهم فى حياتهم الروحية ، وتدفعهم باستمرار الى العمق ·· انظر الى حياتك جيدا وتأملها فى صراحة فربما كان أسباب سقوطها افتقارها الى الخلوة ·

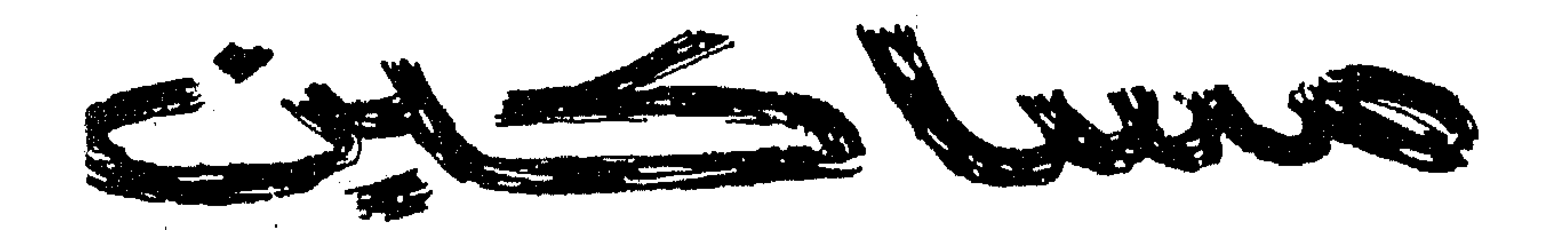
ان الشخص الذى لم يختبر هذه الخلوة ، هو شخص لا يعرف نفسه على حقيقتها · وهو شخص فى أغلب الأحوال يجرفه التيار فلا يعلم الى أين يذهب · انه غالبا يفكر بعقلية الجماعة ويسير على هداها ، فينحدر ويظل فى انحداره حتى يخلو الى نفسه فيحس أنه ساقط ·

أما أنت فلا تكن هذا الشخص • حدد لنفسك أوقاتا مقدسة تراجع فيها سيرتك ، وتتذكر فيها المبادىء السامية التى اقتنعت بها منذ زمان ، ولتسترجع أمامك حياة المنتصرين من أولاد الله ، وتغذى نفسك بكلام الله وأقوال الآباء وسيرهم ، وتسكب نفسك أمامه فى حرارة وعمق • تأخذ منه خبزك اليومى الذى لا غنى لنفسك عنه •

الله معك يقويك ، ويهبك القداسة التى من عنده ، ويغفر لنا خطايانا •



« هل تحسب انى ساحاسب وحدى على خطاياى ؟ ·· كلا ، بل انكم ستقتسمون الحساب معى ··· فلو اعتنت بى الكنيسة ما كنت أصل الى هذه الحالة !! » ·



قال لى وهو ينفث دخان سيجارته فى وجهى : « لعلك تعجب من حالتى الآن » فنظرت الى شعره الطويل المصفف اللامع وعينيه الغائرتين ، وأسنانه الصفراء ، وأصابعه المرتعشة فى عصبية ظاهرة ، وشعرت نحوه بكثير من الاشفاق ··· انه واحد من الذين فداهم المسيح بدمه ·· وقبل أن أجيبه بشىء استطرد فى مرارة : « اننى لم أكن هكذا كما تعلم ··· كنت قوى الروح ، رضى الخلق ، مواظبا على الكنيسة ، ثم أخذت أفتر شيئا فشيئا حتى انقطعت عن حضور الاجتماعات فلم تفتقدنى الكنيسة أو تسع لارجاعى ، وزاد غيابى وزاد معه فتورى ، وضعفت ارادتى ، وظللت أهوى من قمتى العالية قليلا دون أن يفتقدنى أحد ·· الى أن افتقدنى الشيطان ·· وعندما أتى وجد قلبى مزينا مفروشا ووجد ارادتى منحلة ، ولم يجد حولى انجيلا ولا صلاة ولا واحدا من المرشدين الروحيين ، وهكذا ضعت فريسة سهلة ، وسرت فى الظلام ·· الظلام المحبوب الذى أحبه الناس أكثر من النور » · وهز رأسه فى هدوء وقال : « اننى أشترى الآن أربع علب من التبغ كل يوم » ·

وشهقت فى دهشة وألم ولكنه استمر « وأذهب الى دور الخيالة ما لا يقل عن ثلاث مرات فى الأسبوع ، وأقرأ القصص العابثة ،

وأتسلى بالأغانى الماجنــة · واصطحب جمــاعة كأنهم من زبانيــة الجحيم ·· فى بدء سقوطى كنت أقاوم الخطيئة ولا أستطيع ، لضعف ارادتى ·· أما الآن فانى لا أقاوم على الاطلاق » ثم ضحك فى استهتار وقال : « بل أخشى أن أقول ان الخطيئة هى التى تقاومنى ، ولكنها لا تستطيع لضعف ارادتها » !

وكنت خلال ذلك حزينا جدا ، أما هو فنظر الى نظرة قاسية وقال فى حدة : « هل تحسب أننى سأحاسب وحدى على خطاياى · كلا · بل انكم ستقتسمون الحساب معى ·· فلو اعتنت بى الكنيسة ما وصلت الى هذه الحالة » ·

ليس المهم يا صديقى القارىء أن أكمل لك قصة هذا الشاب فانها واحدة من شبيهات كثيرات · على أننى أقول لك اننى رجعت الى منزلى فى تلك الليلة وأنا فى غاية الألم من أجله ومن أجل نفسى· أخذت أسائل نفسى فى صراحة : كم شخص مثل هذا تدهورت حالته نتيجة لعدم افتقادى وعدم اهتمامى ؟ وأخذت أستعرض أسماء الذين لم أفتقدهم منذ مدة ، وانتابنى خوف وهلع ، وشعرت نحوهم بكثير من القلق ، ثم تساءلت : ألعــل وجودى خادما هو معطل لخدمة الله ·· ورنت فى أذنى عبارة الشاب « انكم ستقتسمون الحساب معى » وتذكرت قول القديس يعقوب الرسول : « لا تكونوا معلمين كثيرين يا اخوتى عالمين اننا نأخذ دينونة أعظم لأننا فى أشياء كثيرة نعثر جميعا » ·

ولما استمرت حالة الاضطراب مدة معى ، طلبت اعفائى من الخدمة ، واذ رفض طلبى ارتميت أمام الله وبكيت بكاءا مــرا · عرفت اننى مسكين ··

مسكين عندما رضيت أن أكون خادما ولم أقل عبارة أرميا : « آه يا سيد الرب انى لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد » · ومسكين

عندما كنت أحسب الدرس مجرد محاضرة ألقيها فى هدوء وأنصرف فى هدوء ·

يا اخوتى القراء صلوا من أجلى جميعا ، ومن أجل كل مدرسى مدارس الأحد فانهم مساكين مثلى ومحتاجون ·

واذ أشكو وأتألم من مسئولية فصل صغير ، ماذا أقول يا اخوتى عن آبائى الكهنة ؟ أليسوا هم بالاكثر مساكين جدا ، ماذا يفعل الكاهن وهو مسئول عن خمسة أو عشرة آلاف نسمة ؟ ماذا يجيب عندما يناديه الله « أعطنى حساب وكالتك » ·

فى كنيسة الآباء الأول كان يعاون الكاهن جماعة من الشمامسة ، يعملون معه ويساعدونه فى الخدمة ويأكلون مثله من مال الكنيسة · أما الآن فان أبانا الكاهن يعمل بمفرده ، فصلوا من أجله كثيرا حتى يعينه الله على اتمام واجبه ، وأنت يا أبى الكاهن ما الذى دفعك الى الكهنوت ؟ هل نظرت الى امتيازه أم الى مسئوليته ؟ ألا تعرف يا أبى أنك مسئول عن كل رعيتك : الكبار والصغار ، الرجال والنساء ، الشبان والشابات · ولست مسئولا عمن يحضرون الكنيسة فحسب ، بل أيضا عمن فى دور العبث والفساد ، عن كل شاب ماجن فى الطريق ، وكل سكير فى حانة ، وكل نزاع فى أسرة ·

ان لم تعرف يا أبى أنك مسكين جدا فخير لك أن تعرف هذا من الآن · فادخل الى مخدعك وابك بكاءا مرا · سلم الأمر لله · قل له انك ضعيف ، وان حملك ثقيل ، جاهد واسهر ، لئلا يأتى بغتة فيجدك نائما ·

ان كان أبونا الكاهن هكذا فماذا نقول يا اخوتى عن آبائنا الأساقفة ، الذين سيسأل الله كل واحد منهم عن حوالى مائتى ألف نسمة أو أكثر ، كهنة وعلمانيين ؟! ألا تروا معى يا اخوتى أنهم

مساكين جدا · فصلوا من أجلهم بلجاجة حتى يساعدهم الله على أداء أعمالهم · وأنت يا أبى الأسقف ما الذى دفعك الى الأسقفية ؟ أهو المنصب أم المسئولية ؟ هل اشتهيت فيها المركز والسلطة ولقب « صاحب النيافة » وعضوية المجمع المقدس ، أم انك تشتهى تخليص النفوس !

ثم ماذا فعلت يا سيدى الأسقف بخصوص مسئوليتك ؟ قارن حالة الايبارشية منذ توليتها حتى الآن ··· هل تقدمت أم زالت كما هى ؟ يحسن بك يا أبى الأسقف أن تدخل الى قلايتك وتبكى بكاءا مرا · تذكر أن الرهبـان القديسـين كانوا يهربون من هذا المنصب لأن مسئوليته مخيفة · فاذا ما أمسك واحد منهم بالعنف ورسم أسـقفا رغما عنه كان يبكى ويصرخ أمام الله قائلا : « أنت تعرف يا رب أننى ذهبت الى الدير لأخلص نفسى ، وهأنذا قد أرجعت الى العالم ولم أخلص نفسى بعد ، ومطلوب منى العمل على تخليص الآخرين أيضا · وأنا يا رب لا أستطيع ، فاعمل أنت » وكان الله يعمـل ·

ثم ماذا عن آبائنا البطاركة الذين سيسأل الله كل واحد منهم عن حوالى ثلاثة ملايين نسمة فى مصر ، وعدد أكثر من هذا فى الحبشة والسودان والخمس مدن الغربيـة التى نسـمع عنها فى القداسات ··· ماذا نقول عن هؤلاء ومسئولياتهم الخطيرة ؟ أليسوا هم أيضا مساكين ؟ ··· صلوا يا اخوتى من أجل كل بطريرك حتى يتمكن من القيام بواجبه وحتى يعطى جوابا حينما يسأله الله عن نفسه ونفوس الأساقفة والقسوس والشمامسة والرهبان والعلمانيين، وعندما يسأله عن حفظ قوانين الكنيسـة وعن نشر الأرثوذكسـية فى العالم ···

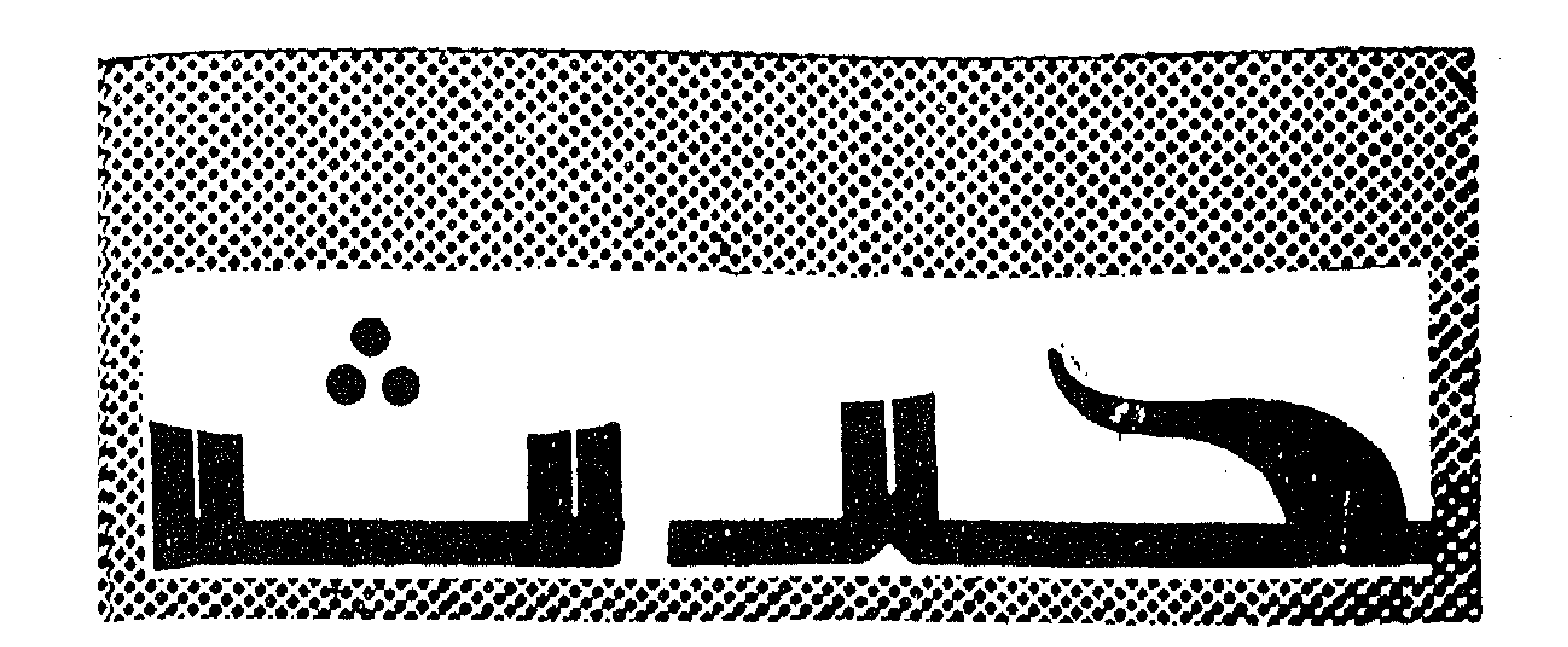
وأنتم يا من سترشحون للبطريركية فى يوم ما ، ان عرضت عليكم فاهربوا لحياتكم ، وان دعاكم الله فانظروا الى مسئولياتها ، وادخلوا الى قلاليكم وابكوا أمام الله بكاءا مرا ·

يا اخوتى القراء : لا تنظروا الى خدام الله ومن يتحملون المسئوليات نظرة المتفرج تمدحونهم ان أحســنوا وتحاسبونهم ان أساءوا وانما صلوا من أجلهم حتى ينجح العمل ٠

وأنت يا سـيدى الخادم اهتم بالمسئولية وليس بالمنصب ٠ ومتى شعرت بالعبء ألق على الرب همك وهو يعولك ٠

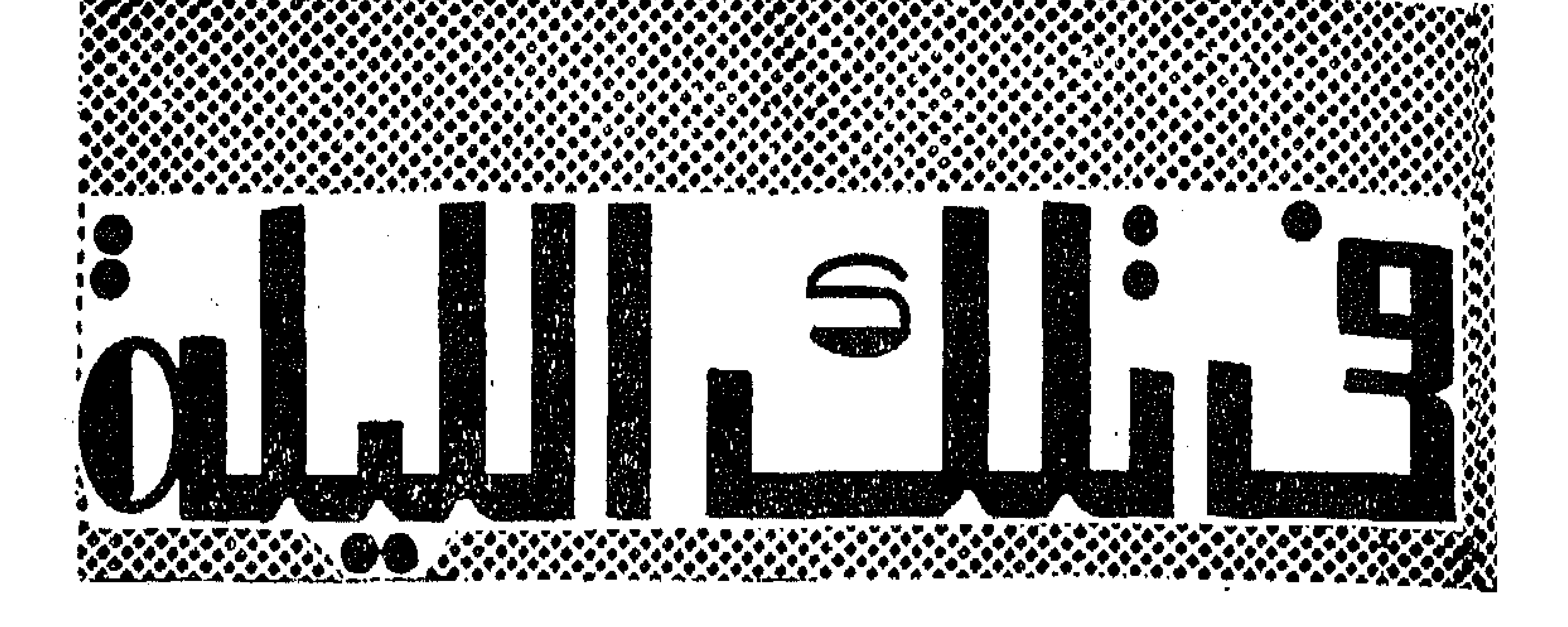
أغلق البــاب وحاجج   فى دجى الليل يسوعا
وامــلأ الليــل صلاة   وصــراعا ودموعــا





« ... قد كرسوا كل حياتهم لله فكانت كل دقيقة من أعمارهم تنفق فى الخدمة ... وهكذا كانوا يعتبرون الخدمة الروحيـة عملهم الرئيسى ، ويرون باقى أعمـال العـالم أمورا ثانوية » .

حدث فى تلك الليلة أننى كنت وحيدا فى غرفتى الخاصة ، متمددا على مقعدى وناظرا الى لا شىء ، واذ بابتسامة خاطئـة تمر على شفتى ـ لعلنى كنت أفـكر فى نفسى كخادم ـ وهنا حدث حادث غريب : هل ثقلت رأسى فنمت، أم اشتطت أفكارى فتحولت الى أحلام ؟ أم أشهر الله لى احدى الرؤى؟ لسـت أدرى ، ولكننى أدرى شيئا واحدا وهو أننى نظرت فاذا أمامى جمـاعة من الملائكة النورانيين ، واذا بهم يحملوننى على أجنحتهم ويصعدون بى الى فوق ، وأنا أنظر الى الدنيا من تحتى فاذا هى تصغر شيئا فشيئا حتى تتحول الى نقطة صغيرة مضيئة فى فضاء الكون ، وأنصت الى أصوات العالم وضوضائه فاذا هى تأخذ فى الخفوت حتى تتحول الى سكون ، وأتأمل نفسى فاذا بجسمى يخف ويخف حتى أحس كأننى روح من غير جسد ـ فأتلفت فى



حيرة حولى لأرى أرواحا كثيرة سابحة مثلى فى الفضاء اللانهائى ، وأرى من الملائكة ألوفا وربوات ربوات ـ ها هم الشاروبيم ذوو الستة الأجنحة والساروفيم الممتلئون أعينا ـ وها هى أصوات الجميع ترتفع فى نغم واحد موسيقى عجيب « قدوس ، قدوس ، قدوس » ولا أتمالك نفسى فأنشد معهم دون أن أحس « قدوس الله الآب ٠٠٠ قدوس ابنه الوحيد ٠٠٠ قدوس الروح القدس » واستيقظ عن انشادى لأسمع نغمة قدسية خافتة لم تسمعها أذن من قبل ، فاتجه فى شوق شديد نحو مصدر الصوت ، فاذا أمامى على بعد مدينة جميلة نورانية معلقة فى ملك الله ، تموج بالتسبيح والترتيل ، كلما أسمع منها نغما يمتلىء قلبى فرحا ، وتهتز نفسى اشتياقا ، ثم أنا أنظر فأرى فى المدينة على بعد أشباحا أجمل من الملائكة : هوذا موسى ومعه ايليا وجميع الأنبياء ، هوذا أنبا أنطونيوس وأنبا أثناسيوس وجميع القديسين ، ها هم آبائى الأساقفة وآبائى الكهنة ـ وها هو أب اعترافى ـ ثم ها هم بعض زملائى مدرسى مدارس الأحد ٠٠٠ ولم أستطع أن أتأمل أكثر من ذلك بل اندفعت فى قوة نحو تلك المدينة النورانية ، ولكن عجبا ـ اننى لا أستطيع التقدم ، فهناك ملاك جبار كله هيبة وجلال ووقار يعترض سبيلى قائلا :

— « مكانك قف ! الى اين أنت ذاهب ؟ » فأجيبه :

— « الى تلك المدينة العظيمة يا سيدى الملاك ـ الى حيث زملائى واخوتى وآبائى القديسون » · ولكن الملاك ينظر الى فى دهشة ويقول :

— « ولكنها مدينة الخدام فهل أنت خادم ؟ » فلما أجبته بالايجاب قال لى :

— « انك مخطىء يا صديقى فاسمك ليس فى سجل الخدام » · وعصفت بى الدهشة فصرخت فى هذا الملاك حارس المدينة :



— « كيف هذا ؟ لعلك لا تعرفنى يا سيدى الملاك · اسأل عنى مدارس الأحد واجتماعات الشباب واسأل عنى الكنائس والجمعيات · بل اسأل عنى أيضا فى **مدينة الخدام** اذ يعرفنى هناك كثير من زملائى مدرسى مدارس الأحد ··· » ·

واجابنى الملاك فى صرامة وصراحة :

— « اننى أعرفك جيدا ، وهم أيضا يعرفونك ، ولكنك مع ذلك لست بخادم فهذا حكم الله » ·

ولم أحتمل تلك الكلمات ، فوقعت على قدمى أبكى فى مرارة ، ولكن ملاكا آخر أتى ومسح كل دمعة من عينى ، وقال لى فى رفق :

— « انك يا أخى فى المكان الذى هرب منه الحزن والكآبة فلماذا تكتئب ؟ — تعال معى ولنتفاهم » ·

وجلسنا منفردين نتناقش فقال لى :

— « ان أولئك الذين تراهم فى مدينة الخدام قد **كرسوا كل حياتهم** لله ، فكانت كل دقيقة من أعمارهم تنفق فى الخدمة · أليست هكذا كانت حياة بولس وباقى الرسل ؟ أليست هكذا كانت حياة موسى والأنبياء ؟ أليست هكذا كانت حياة الأساقفة والكهنة والشمامسة ؟ أليست هكذا كانت حياة القديسين ؟ اما أنت يا صديقى فلم تكن مكرسا بل كنت تخدم العالم ، وكل ما لك من خدمة روحية هو ساعة واحدة فى الأسبوع تقضيها فى مدارس الأحد ، وأحيانا كانت خدماتك الأخرى تجعلك تعطى الله ساعة ثانية ، فهل من أجل ساعتين فى الأسبوع تريد أن تجلس الى جانب الرسل والأنبياء والكهنة فى مدينة الخدام ؟ » · وكنت مطرقا خجلا أثناء ذلك الحديث كله ، غير أننى قاومت خجلى وتجرأت وسألت الملاك : « ولكننى أرى فى مدينة الخدام بعضا من زملائى مدرسى مدارس الأحد وهم مثلى فى خدمتى » فأجابنى الملاك :



— « كلا ! انهم ليسوا مثلك • حقيقة انهم كانوا يخدمون ساعة أو أكثر فى مدارس الأحد ولكنهم كانوا يقضون الأسبوع كله تمهيدا لتلك الساعة ، فكانوا يصرفون وقتا كبيرا فى تحضير الدروس ووسائل الايضاح ، وطرق التشويق ، والصلاة من اجل كل ذلك ، وبحث حالات التلاميذ واحدا واحدا ، والتفكير فى طريقة لاصلاح كل فرد على حدة ، يضاف الى ذلك انشغالهم فى الافتقاد ،وفى ابتكار طرق نافعة لشغل أوقات تلاميذهم أثناء الأسبوع ـ ثم كانت لهم خدمات أخرى مختفية لا تعرفها ، وهكذا كانوا يعتبرون **الخدمة الروحية عملهم الرئيسى** ، ويرون باقى أعمال العالم أمورا ثانوية ـ لا أعنى أنهم أهملوا مسئولياتهم وواجباتهم العالمية بل كانوا مخلصين لها جدا وناجحين فيها للغاية وان كان عملهم العالمى أيضا لا يخلو من الخدمة ، وهكذا حسبهم الله مكرسين » •

وعجب من هذه العبارة فسألت : « وكيف أستطيع أن أكون خادما وأنا مشغول بعملى العالمى ؟ » فأجابنى الملاك :

« لعلك نسيت يا أخى عمومية الخدمة ! يجب أن تخدم الله فى كل وقت وفى كل مكان : فى الكنيسة وفى الطريق وفى منزلك وفى مكان عملك وأينما حللت أو تنقلت •

« لا يجب اذن الفصل بين المهنة والخدمة ، فعندنا فى مدينة الخدام مدرسون استطاعوا أن يجذبوا كل تلاميذهم المسيحيين الى مدارس الأحــد ، وأن يصلحوهم ويتعهدوهم بالعناية المستمرة · وعندنا فى مدينة الخدام أطباء لم يتخذوا الطب تجارة وانما اهتموا قبل كل شىء بصحة مرضاهم مهما كانت حالتهم المالية ، فكانوا فى أحيــان كثيرة يداوون المريض ويرسلون له الدواء ـ كل ذلك بدون أجر ، بل كانوا يقومون بتأسيس المستشفيات والمستوصفات المجانية ، وعندنا فى مدينة الخدام موظفون استطاعوا أن يقودوا كل زملائهم فى العمل الى الكنيسة للاعتراف والتناول من الأسرار المقدســة · وهناك أيضــا مهندسون ومحامون وفنانون وتجــار وصــناع : كل أولئك كانوا خداما فى مهنهم ، فهــل كنت أنت كذلك ؟ » ·

فخجلت من نفسى ولم أجب ولكن الملاك قال لى فى تأنيب مؤلم :

ــ « هذا عن الخدمة فى مكان عملك : ثم ماذا عن خدمتك فى أسرتك ! ـ ان يشوع الذى تراه فى مدينة الخدام كان يقول « أما أنا وبيتى فنعبد الرب » · أما أنت فلم تخدم بيتك بل كنت على العكس فى نزاع مستمر مع أفراد أسرتك ، بل فشلت فى أن تكون قــدوة لهم وأن تجعلهم يقتدون بك · ثم ماذا عن أصدقائك وزملائك وجيرانك ومعارفك ؟ كنت تزورهم فى عيدى الميلاد والقيامة دون أن تحدثهم عن الميلاد والقيامة ، وعن الولادة الجديدة والقيام من الخطية بل تفرح معهم فرحا عالميا ، وأتيحت لك فرص كثيرة لخدمتهم ولم تستغلها ، فهل تعتبر نفســك بعد كل ذلك خادما ؟! » ·

وطأطأت رأسى خجلا للمرة الثالثة ، ولكنى مع ذلك احتلت على الاجابة فقلت :

— « ولكنك تعلم يا سيدى الملاك اننى شخص ضعيف المواهب ولم أكن مستطيعا أن أقوم بكل تلك الخدمة ·

واندهش الملاك ، وكأنما سمع هذا الرأى لأول مرة ، فقال في حدة :

— « مواهب ؟ ومن قال انك بدون المواهب لا تستطيع أن تخدم ! هناك يا أخى ما يسمونه العظة الصامتة : لم يكن مطلوبا منك أن تكون واعظا وانما أن تكون عظة ··· ينظر الناس الى وجهك فيتعلمون الوداعة والبشاشة والبساطة ، ويسمعون حديثك فيتعلمون الطهارة والصدق والأمانة ، ويعاملونك فيرون فيك التسامح والاخلاص والتضحية ومحبة الآخرين فيحبوك ويقلدوك ويصيروا بواسطتك أتقياء دون أن تعظ أو تقف على منبر ، ثم هناك صلاتك من أجلهم وقد تجدى صلاتك أكثر من عظاتك » ·

وللمرة الرابعة تولانى الخجل والارتباك ، فلم أحر جوابا — واستطرد الملاك فى قوله :

— « وكان يجب عليك ايضا — كعظة صامتة — أن تبتعد عن العثرات فلا تتصرف تصرفا مهما كان بريئا فى مظهره ان كان يفهمه الآخرون على غير حقيقته فيعثرهم — وهكذا تكون (بلا لوم) أمام الله والناس كما يقول الكتاب : جاعلا أمام عينيك كخادم قول بولس الرسول : « كل الأشياء تحل لى ، ولكن ليست كل الأشياء توافق » (اكو ٦ : ١٢) ·

وتأملت حياتى فوجدت أننى فى أحوال كثيرة جعلت الآخرين يخطئون ولو عن غير قصد · وقطع على الملاك حبل تأملاتى قائلا فى رفق :

— « ولكن ليس هذا هو كل شيء · اننى أشفق عليك كثيرا يا صديقى الانسان · وقد كنت أشفق عليك بالأكثر اثناء وجودك

فى العالم ، وخاصة فى تلك اللحظات التى كنت تتالم فيها من (البر الذاتى) • كنت تنظر الى خدماتك الكثيرة فتحسب انك مثال للخدمة بينما لم تكن محسوبا خادما على الاطلاق • ولعلك قد اقترفت أخطاء كثيرة أخرى ، منها أن خدمتك كانت خدمة رسميات ، فقد كنت تذهب الى مدارس الأحد كعادة أسبوعية ، وكعادة أيضا كنت تصلى بالأولاد ، وكنت ترصد الغياب والحضور ، فتعطى للمواظب جائزة ، وتهمل الغائب كأنك غير مسئول عنه • وهكذا خلت خدمتك من الروح ومن المحبة ، ولم تستطع أن تصل الى أعماق قلوب الأولاد ، لأن كلماتك وتصرفاتك لم تكن خارجة من أعماق قلبك • ولم يكن فى الترتيل الذى تعلمهم اياه روح البهجة ، ولم تكن فى صلاتك معهم روح الانسحاق أو التأمل أو التضرع • ولم تكن فى أوامرك لهم روح المحبة • وهكذا لم تحدث فى خدمتك تاثيرا ، وكذلك كنت فى عظاتك فى الكنائس أيضا : تعظ لأن الكاهن طلب منك ذلك فوعدته وعليك أن تنفذ ، فكنت تهتم بتقسيم الموضوع وتنسيقه ، واخراجه فى صورة تجذب الاعجاب أكثر مما تهتم بخلاص النفوس ، وكان صوتك رغم علوه وايقاعه ووضوحه باردا خاليا من الحياة ، وكنت تبتهج ـ ولو داخليا فقط ـ بمن يقرظ موضوعك دون أن تهتم هل جدد الموضوع حياة ذلك الشخص أم لا • الا ترى معى يا صديقى أنك كنت تخدم نفسك ولم تكن تخدم الله ولا الناس • ولعل من دلائل ذلك أيضا أنك كنت ترحب بالخدمة فى الكنائس الكبيرة المشهورة الوافرة العدد دون الكنائس الصغيرة غير المعروفة كثيرا •

« ثم أنه نقص من خدمتك فى هذه الناحية أمران هما : حب الخدمة وحب المخدومين ••• أما عن حب الخدمة فيتجلى فى قول السيد المسيح : « طوبى للجياع والعطاش الى البر » فهل كنت جوعانا وعطشانا الى خلاص النفوس ؟ هل كنت طول الأسبوع

تحلم بالساعة التى تقضيها وسط أولادك فى مدارس الأحد ؟ هل كنت تشعر بألم اذا غاب أحدهم ، وبشوق كبير الى رؤية ذلك الغائب فلا تهدأ حتى تجده وتعيد عليه شرح الدرس ! — ثم الأمر الآخر وهو حب المخدومين : هل كنت تحب من تخدمهم ، وتحبهم الى المنتهى مثلما كان السيد المسيح يحب تلاميذه ؟ هل كنت تعطف عليهم فتغمرهم بالحنان ؟ وهل أحبك تلاميذك أيضا ؟ أم كنت تقضى الوقت كله فى انتهارهم ومعاقبتهم بالحرمان من الصور والجوائز ؟ من قال لك ان تلك الطريقة صالحة لمعالجة الأولاد ؟ ان المحبة يا صديقى الانسان هى الدعامة الأولى للخدمة . ان لم تحب مخدوميك لا تستطيع أن تخدمهم ، وان لم يحبوك لا يمكن أن يستفيدوا منك » .

واطرقت فى خجل مرير وقد تكشفت لى حقيقتى بينما نظر الى الملاك نظرة كلها عطف ومحبة وقال :

— « أريد أن أصارحك بحقيقة هامة وهى أنه كان يجب أن تقضى فترة طويلة فى الاستعداد والامتلاء قبل أن تبدأ الخدمة — لأنك وقد بدأت مبكرا ولم تكن لك اختبارات روحية كافية ، وقعت فى أخطاء كثيرة » .

ونظرت اليه فى تساؤل وكأنما شق على أن أخطىء وقد كلفت باصلاح أخطاء الآخرين ، فأجاب الملاك على نظرتى بقوله :

— « هناك ولد طردته من مدارس الأحد لعصيانه وعدم نظامه — فأوجد هذا الطرد عنده لونا من العناد وقذف به الى أحضان الشارع والصحبة الشريرة ، فأصبح أسوأ من ذى قبل ، وحاقت به من تصرفك أضرار جسيمة ، خاصة وأنه فى حالته الجديدة فقد المرشد والعناية ، ولابد أنك مسئول عن هذا لأنه فى حدود عملك » .

فأجبت (ولكنه يا سيدى الملاك كان يفسد على الدرس ، بل كان قدوة سيئة لغيره) ٠

فأجاب الملاك فى مرارة :

— « وهل من أجل ذلك طردته ؟ يا لك من مسكين : هل أرسلك السيد المسيح لتدعو أبرارا أم خطاة الى التوبة ؟؟ ان تلاميذك القديسين الذين كنت بسببهم تحارب نفسك بالبر الذاتى ، ترجع قداستهم الى عمل الله فيهم ، أما ذلك المشاكس فهو الذى كان يجب أن تتناوله بالرعاية ٠ لمثل هذا النوع دعاك الله ٠ ولو أنك كرست جهودك كلها لاصلاح هذا الولد فقط ولم يكن لك فى حياة الخدمة غير هذا العمل ، لكان هذا وحده كافيا لدخولك مدينة الخدمة ٠٠٠ **كان يجب أن تقدر قيمة النفس** وأن يكون لك الكثير من **طول الأناة** ٠

فخادم مدارس الأحد الذى تخلو مؤهلاته من هاتين الصفتين ٠ لا يستحق أن يكون خادما ٠

فقلت للملاك فى رجاء : « وماذا كنت تريدنى أن أعمل مع هذا الولد ؟ » فأجاب :

— « تخدمه بقدر ما تستطيع ، وتختبر نفسيته وتعالجه بحسب ظروفه ، وتصلى كثيرا من أجله ـ فاذا ما فشلت فلا نطرده وانما حوله الى فصل آخر ، فقد ينجح زميل لك من المدرسين فيما فشلت أنت فيه ـ فاذا لم ينفع هذا أيضا يمكنكم أن تخصصوا فصلا أو أكثر من مدارس الأحد للأولاد المشاغبين ، يعامل فيها هؤلاء الأولاد معاملة خاصة وفق طبائعهم ـ ويمكن أن تكثروا من افتقادهم ومن تقريبهم الى قلوبكم على ألا يطرد واحد منهم مهما أدى الأمر ٠ انهم ليسوا باكثر شرا من الحالة الأولى لزكا أو المرأة السامرية أو مدينة نينوى ٠ وخادم الله لا يعرف اليأس مطلقا ما دامت له الصلاة المنسحقة والقلب المحب » ٠

وشعرت بندم على تصرفاتي القديمة ، ولكن الملاك استطرد :

— « ثم هناك ولد آخر غاب عن فصلك أسبوعا ثم أسبوعين فلم تفتقده وكل ما فعلته كموظف رسمى فى مدارس الأحد (!!!) انك رصدته فى سجلك ضمن الغائبين ، واستغل الولد عدم افتقادك فاستمر فى غيابه ، وانتهزت أنت فرصة غيابه المستمر : فشطبت اسمه من قائمتك » ٠

ونظر الى الملاك فى صرامة وقال :

« لماذا لم تفقده ؟ » وضعفت أمام حدة صوته ونظرته ، فصمت خوفا ، بينما كرر سؤاله مرة أخرى فى عنف « لماذا لم تفتقده ؟ » ٠ وشعرت بعاصفة تجتاح رأسى ولم أجب ، بينما ارتعش الملاك وقال فى اضطراب :

— « ان حالته الروحية تدعو الآن الى الرثاء ، ولو استمر على هذه الحالة فانه سوف ٠٠٠ » ٠ واختلج صوت الملاك وصمت قليلا ثم قال :

— « اننى وكثير من الملائكة نصلى من أجله حتى ينقذه الله ٠٠٠ وعندما يستجيب الله صلاتنا ويرسل اليه خادما آخر أمينا فى خدمته ، وعندما ينقذ الولد ، فان انقاذه سوف لا يخليك من المسئولية » ٠

وكان صوته خافتا متألما لم أحتمل سماعه ، فشعرت بالمناظر تدور أمام عينى ثم وقعت مغشيا على ٠٠٠

وعندما أفقت كان الملاك ينظر الى فى اشفاق ، وساعدتنى نظرته على التكلم فقلت :

« سامحنى يا سيدى الملاك فقد كان فى فصلى ثلاثون ولدا لم أستطع أن أفتقدهم جميعهم » فأجابنى : « وحتى أنت وقعت

فى هذه التجربة ؟ فى اغراء العدد ؟ ان الله لا يقيس الخدمة بعدد التلاميذ ، وانما بعدد المتجددين الخالصين منهم ··· أنا أعرف أنه كان صعبا عليك أن تهتم بثلاثين ولدا من ناحية النظام والافتقاد والرعاية والتعليم ، بل كان من الصعب عليك أن تحفظ مجرد أسمائهم ، فلم تستطع أن تقول مع المسيح « خرافى تعرفنى وأنا أعرفها » · ولكن لماذا لم تقتصر فى خدمتك على عشرة أولاد مثلا ؟ ··· » ·

وفضلت الصمت لأنى لم أجد جوابا · أما الملاك فانه قال فى اشفاق :

— « هل تعلم ما هو أهم سبب فى فشلك غير ما قلناه ؟ انه اعتمادك على نفسك · **وهكذا نسيت أن تصلى وتصوم من أجل الخدمة** · ان زملاءك مدرسى مدارس الأحد الذين فى مدينة الخدام كانوا يقيمون صلاة وصوما خصيصا من أجل فصولهم ، وكانوا فى كل يوم من أيام الأسبوع يذكرون أولادهم واحدا واحدا أمام الله طالبين طلبة خاصة من أجل كل واحد ، بل كانوا يطلبون من آبائهم الكهنة اقامة قداسات خاصة من أجل الأولاد فهل كنت كذلك ؟

« هذا كله عن الخدمة الروحية ، ثم ماذا عن **خدمتك المادية ؟** هل ظننتها أمرا ثانويا ؟ ألم تعلم أن الغنى الذى عاصر اليعازر هلك لأنه لم يشفق على اليعازر المسكين ؟ ألم تسمع المسيح يقول للهالكين (كنت جوعانا فلم تطعمونى ، كنت عطشانا ··· كنت عريانا ··· كنت مريضا ···) فماذا فعلت أنت ؟ ألم تتمسك ببعض الكماليات بينما كان اخوتك محتاجين الى الضروريات ؟ ألم ··· » ·

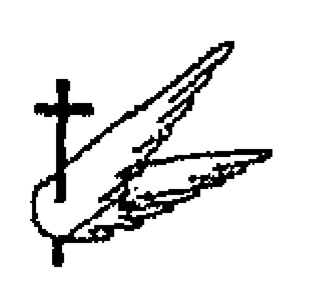
ولم أحتمل اكثر من ذلك فصرخت فى ألم « كفى يا سيدى الملاك ، الآن عرفت أننى غير مستحق مطلقا لدخول مدينة الخدام

ـ فقد كنت مغرورا يا سيدى ومغرورا جدا ـ أما الآن وقد عرفت كل شيء فاني أطلب فرصة أخرى أعمل فيها كخادم حقيقى » ٠

فقال لى الملاك : « لقد أعطيت لك الفرصة ولم تستغلها ثم انتهت أيامك على الأرض ٠٠٠ » ٠

فالححت عليه وظللت أبكى وأرجوه ، أما هو فنظر الى فى اشفاق ومحبة وتركنى ومضى وأنا ما أزال أصرخ « أريد فرصة أخرى ـ أريد فرصة أخرى » ٠ فلما اختفى عن بصرى وقعت على قدمى وأنا أصرخ « أريد فرصة أخرى » ثم دار الفضاء أمامى ولم أحس بشيء ٠٠٠

ومرت على مدة وأنا فى غيبوبة طويلة ، ثم استفقت أخيرا وفتحت عينى ولكنى دهشت ، وازدادت دهشتى جدا ٠٠ وظللت أنظر حولى وأنا لا أصدق ، ثم دققت النظر الى نفسى فاذا بى ما أزال وحيدا فى غرفتى الخاصة متمددا على مقعدى ٠٠٠ يا لرحمة الله ٠٠ أحقا أعطيت لى فرصة أخرى لأكون خادما صالحا ؟ ٠٠٠ وقمت فقدمت لله صلاة شكر عميقة ، ثم عزمت أن أخبر اخوتى بكل شيء ليستحقوا هم أيضا الدخول الى مدينة الخدام ٠ وهكذا امسكت بعض أوراق بيضاء ، وأخذت أكتب « حدث فى تلك الليلة ٠٠٠) ٠



هو ذا تأتى ساعة وقد أتت الآن
تتفرقون فيها كل واحد الى خاصته ·

وتتركوني وحدي

واقف وحــــده ··

كان ذلك المحب الحنـون الطيب القلب يجول يصنع خيرا · ينتقل من قرية الى قرية ومن مدينـة الى مدينـة يكرز ببشـارة الملكوت ، ويشفى كل مرض وكل ضعف فى الشعب ·· ومع ذلك ، اجتاز حياة مليئة بالألم · وكان الجميع يتركونه وحده ، على الرغم من أنه فى حنانه لم يترك أحدا · وهكذا وجدناه وحيدا فى متاعبه وآلامه ، وحيـدا فيما يتعرض له من ظلم واضطهاد : لم يدافـع عنه أحد ، ولم يقف الى جواره أحد ، وانما « جاز المعصرة وحده » ·

كان يصلى فى بستان جسثيمانى ، وكان يكلم الآب فى لجاجة وقد سال « عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض » ، وهو يصرخ فى اكتئاب « يا أبتاه ان أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس » أما تلاميذه ، أحباؤه وأصدقاؤه ، فقد تركوه وحده وناموا ، ثلاث مرات يرجوهم أن يســهروا معــه ســاعة واحــدة وهم لا يستجيبون له ؟ (متى ٢٦ : ٣٨ ــ ٤٥) ·

وعند القبض عليه تفرق تلاميذه كل واحد الى خاصته وتركوه وحده كما سبق أن قال لهم (يو ١٦ : ٣٢) · ولما حوكم لم يدافع عنه أحد ، وهو الذى دافع عن أشهر الخطاة ··· وفى آلامه لم يكن هناك من يعزيه · انه درس يعطيه لنا السيد الرب عندما يضطهدنا الجميع ، وعندما يتركنا حتى تلاميذنا أيضا ، ويقف كل منا وحده ··

وليس فى وقت الآلام فقط ، وانما فى كل حياته أيضا ٠٠ كان يكلم اليهود فى الهيكل محدثا اياهم عن التناول من جسده ودمه ، واذ صعب على البعض فهم هذا الأمر ٠ يقول القديس يوحنا : « من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه الى الوراء ولم يعودوا يمشون معه ، فقال يسوع للاثنى عشر ألعلكم أنتم أيضا تريدون أن تمضوا » (يو ٦ : ٦٦) ٠

وفى مرة من المرات دعا البعض اليه ، فاعتذر واحد ببقرته التى يريد أن يختبرها ، واعتذر الآخر لأنه مشغول بزوجته ، واعتذر الثالث لمشغوليته بحقله ٠ وتركه الجميع وحده ، مع أنهم كانوا ثلاثتهم ممن أنعم عليهم (لو ١٤ : ١٨ ــ ٢٠) ٠

ويعوزنى الوقت يا أخى ان حدثتك عن المسيح الواقف وحده الذى « الى خاصته جاء وخاصته لم تقبله » (يو ١ : ١١) ذلك النور الذى جاء الى العالم وأحب العالم الظلمة أكثر من النور » (يو ٣ : ١٩) ٠

كل ذلك حدث فى القديم وما زال يحدث حتى الآن ٠ نفس الصورة القديمة : المسيح واقف ، والعالم منشغل عنه بملاذه وملاهيه وطيشه ، ليس من يهتم بيسوع ، ليس ولا واحد ، ليس من يجلس اليه كمريم أخت مرثا ، أو يتكىء فى حضنه كيوحنا بن زبدى ، أو يغسل قدميه كالمرأة الخاطئة ٠ والمسيح نفسه يشعر بهذه الوحدة ويعرف أن غالبية العالم منصرفة عنه ٠ بل ان الكتاب ليتساءل أكثر من هذا : عندما يأتى المسيح الى العالم ألعله يجد الايمان على الأرض ؟!

فهل أنت أيضا تارك الرب يسوع وحده ، ألك ما يشغلك عنه ــ اسأل نفسك ؟

كان وحيدا فى تفكيره :

قليلون كانوا يفكرون فى المســيح ، وحتى هؤلاء الذين كانوا يفكرون فيه ويتحدثون معــه ويستمعون اليه ، هؤلاء أيضا كانت لهم طريقتهم الخاصة فى التفكير ، التى كثيرا ما كانت تتعارض مع طريقة المعلم الصالح ٠

يذهب السيد الى السامرة فتطرده تلك المدينة الخاطئة وتغلق أبوابها فى وجهه ، وهنا يلتفت التلميذان اللذان كانا مع المسيح ويقــولان له : « ان شئت يا رب أن تنزل نار من السماء وتحرق هذه المدينة » ! ويرد عليهما السيد : « لستما تعلمان من أى روح انتما لأن ابن الانسان لم يأت ليهلك العالم بل ليخلص العالم » ٠ كان هذان التلميذان يفكران بطريقة غير طريقة معلمهما الطيب الذى يشعر أن له فى هذه المدينة كثيرين مختارين ٠

هذا الشعور العدائى نحو السامريين ، اقتبسه التلاميذ من معاصريهم من الفريسيين والكتبة وغيرهم ٠ أما السيد المسيح فكان وحيدا فى تفكيره ازاء هؤلاء ، كان يحبهم ويعطف عليهم ويريد أن يجذبهم اليه : وهكذا حدث الناس عن السامرى الصالح ، وسار على قدمية مسافة طويلة ليهدى امرأة سامرية خاطئة ، ويتحــدث الى مدينــة السامرة ٠



وهكذا كان السيد وحيدا فى تفكيره ازاء الأمم أيضا • كان هؤلاء محتقرين من الناس ، أما السيد المسيح فقال جهارا عن قائد المئة الرومانى : « الحق أقول لكم اننى لم أجد فى اسرائيل ايمانا كايمان هذا الرجل » (متى ٨ : ١٠) • وقال هذا الكلام نفسه عن المرأة الكنعانية (متى ١٥ : ٢٨) •

وفى أغلب معاملات السيد للناس كان يقف وحده ، والعالم يقف بعيدا عنه من ناحية أخرى •

يجتمع اليهود حول امرأة زانية ضبطت فى ذات الفعل ، ممسكين حجارة فى أيديهم كى يرجموها • الجميع لهم فكر واحد • وهو أن تلك الخاطئة يجب أن تموت ، ولكن يسوع له فكر آخر « من منكم بلا خطية فليقذفها بأول حجر » (يو ٨ : ٧) هكذا قال لهم ، فانصرف الجميع ، وقال السيد للمرأة : « وأنا أيضا لا أدينك • اذهبى بسلام » •

كان السيد المسيح يقف وحده بهذا القلب المحب ، والعالم القاسى يعجب منه ، هذا العالم المهتم بالمظاهر أكثر من كل شىء : وليس أدل ذلك من حادثتى الأعميين ، والأطفال :

كان السيد خارجا من أريحا ، فاعترض طريقه أعميان يصرخان بصوت عال « ارحمنا يا سيد يا ابن داود » • وظن الناس بتفكيرهم العالمى أن هذا الصراخ يزعج رب المجد فانتهروا الأعميين ليسكتا (متى ٢٠ : ٣١) • أما يسوع الطيب القلب فنادى الأعميين اليه ، وفى حنان شفاهما ، انه لا ينزعج من صراخ الناس وطلباتهم كما ينزعج الغير •

وتكرر هذا التصرف أيضا عندما ازدحم حواليه الأطفال ، وظن الناس أن هؤلاء الصغار يضايقونه فانتهروهم • أما هو فقال لهم : « دعوا الأطفال يأتون الى ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات » (متى ١٩ : ١٤) •

كان وحيدا في فهمه للخدمة :

بينما كان الجمع يفكر أن السيد قد جاء ليكون ملكا على اسرائيل ، يحكم بأبهة الملوك ويخلص اليهود من اضطهاد الرومان ، كان السيد يفكر فى مملكة روحية يملك بها على قلوب الناس قائلا لهم فى أكثر من مناسبة : « مملكتى ليست من هذا العالم » (يو ١٨ : ٣٦) ٠

وعلى هذا الأساس كان يفهم الخدمة أنها صليب يحمله الخادم فى أرض مبللة بالعرق والدموع ٠٠٠ ولكن هذه الأفكار لم يكن يفهمها حتى تلاميذه أيضا ٠

وهكذا اذ حدث التلاميذ أنه ينبغى أن يسلم للناس ويقتل ويموت ويقبر ، أخذه بطرس الرسول ناحية وبدأ يوبخه قائلا : « حاشاك يا رب ٠ لا يكون لك هذا » (متى ١٦ : ٢٢) فأجابه السيد له المجد : « أسكت يا شيطان » ، ترى كيف كان يمكن أن يخلص العالم لو نفذت نصيحة بطرس المسكين !

وهكذا أيضا فيما كان السيد يضع صليبه أمام عينيه باستمرار ، نرى التلاميذ يتركون معلمهم وحده فى تفكيره ، متناقشين فيما بينهم وبين أنفسهم « من يكون فيهم رئيسا » ! ونرى ابنى زبدى يأتيان اليه مع أمهما ساجدين طالبين أن يجلس أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره فى ملكوته ! ولكن السيد يرد هذين التلميذين الى المعرفة الحقيقية للخدمة وطريقها ويجيبهما : « لستما تعلمان ما تطلبان ٠ أتستطيعان أن تشربا الكأس التى سوف أشربها أنا ، وأن تصطبغا بالصبغة التى أصطبغ بها أنا ؟ » (مر ١٠ : ٣٨) ٠

وحتى فى كنه الخدمة نجد السيد المسيح واقفا وحده فى تفكيره ٠ يجمع الناس اليه فيتحدث اليهم بكلام النعمة ساعات طويلة حتى اذا ما أقبل المساء يأتى اليه التلاميذ قائلين : « أصرف الجموع لكى يمضوا الى القرى ويبتاعوا لهم طعاما » (لو ٩ : ١٢) يا للتلاميذ ،

انهم لم ينضجوا بعد ، هل كانوا يفكرون أن الخدمة مجرد كلام يلقى على الناس ؟ أم أنها محبـة عاملة ! وهكذا يرد عليهم السـيد : « لا حاجة لهم أن يمضوا · أعطوهم أنتم ليأكلوا » ·

وحيدا فى الخـدمة :

العالم مزدحم بخدامه ، بل ان الخـدام فيـه لينافس بعضهم بعضا ، وكل صاحب مشروع يجد كثيرين ينضمون اليه ويعاونونه · أما السيد له المجد فانه واقف وحـده ··· لقـد قال منذ عشرين قرنا تقريبـا وما يزال يقول حتى الآن : « الحصـاد كثير والفعلة قليلون · أطلبـوا من رب الحصـاد أن يرسل فعله لحصـاده » (متى ٩ : ٣٨) ليس من ينضم الى السيد فى عمله · كل شخص يقول : « أحارس أنا لأخى ؟ » (تك ٤ : ٩) ·

سأصف لك يا أخى العزيز بعض حالات رأيتها بعينى ···

★ امرأة فقيرة وزوجها وثمانية أولاد أكبرهم شاب طائش ، والذى يليه فى السن صبى صغير · كل ايراد هذه الأسرة حوالى الأربعة قروش يكسبها الرجل يوميا من بيع الليمون مثلا ، يشترى بها خبزا يتخاطفه الأولاد فى جوع ، ثم تمر عليهم أوقات لا يجدون فيها ما يأكلونه ، فتحمل الأم المسكينة البعض منهم الى ملجـأ أو جمعية لتتسول لهم طعاما ، وماذا اذن عن ملابسهم التى لا تستر من جسمهم شيئا ، وكيف يحتملون بهذه الملابس برودة الشـتاء وحرارة الصيف ، ثم ماذا عن أجرة حجرتهم وصاحبة البيت التى تهددهم بالطرد وتشبعهم سبا واهانة كلما قصروا فى دفع الايجار ·

★ امرأة أخرى أرملة وأولادها ، كانت تعمل فى جمعية دينية كحائكة للملابس مرضت شهرين ، ربما لضعفها بسبب قلة الغذاء ، فكانت النتيجة أن استغنت الجمعية عنها بسبب مرضـها · ولما قامت الأرملة الفقيرة من المرض ولست أدرى تماما كيف عولجت ،

★) كلها حالات فى بداية الخمسينات وأواخر الاربعينات ·

وكيف دفعت ثمن الدواء !! أقول انها لما قامت وجدت نفسها وحيدة والدنيا مظلمة حولها ·

★ أرملة أخر شابة ولها ولدان ، تسكن فى حمام فى بدروم فى حجرة حقيرة فى منتهى الرطوبة ، تدفع ايجارا لها ثلاثين قرشا ، وهى وأولادها مهددة بالسل وأمراض أخرى ، ومهددة قبل كل ذلك بالارتداد عن الدين وبالفساد والتشرد · وكيف تقتات ؟ تعمل كغسالة ، ولكنها لجوعها ضعيفة الصحة ، لا تقوى على الغسيل ، فلا تجد من يستخدمها ·

وهناك حالات أخرى كثيرة ، والسيد المسيح واقف وحده يعتنى بكل هؤلاء · يقيتهم ويجفف آلامهم ، ويعزيهم ويعلمهم الصبر والاحتمال · وفى كل ذلك يريد أن يشرك معه البعض منا نحن الخطاة فى شرف الخدمة ، ولكنه مع كل هذا ينظر فيجد الحصاد كثيرا والفعلة قليلين ، ويجد الجميع قد انصرفوا كل واحد الى خاصته وتركوه وحده ·

من الخاسر فى هذه الوحدة ؟

ليس هو السيد المسيح طبعا فهو ليس وحده ، لأن الآب معه ، وهو ليس محتاجا الى عبوديتنا بل نحن المحتاجون الى ربوبيته ·

وهو عندما يدعونا أن نقف معه فى وحدته ، انما يقصد خيرنا نحن بالذات · لأنه « ان كان الرب معنا فمن علينا » والذى يسير مع المسيح سيجد لذة روحية خاصة « تحت ظله اشتهيت أن أبيت »· كما أنه فى صحبة السيد لا يخاف شرا « ان سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شرا لأنك أنت معى » « وان قام على جيش ففى ذلك أنا مطمئن « عصاك وعكازك هما يعزياننى » (مز ٢٣ ، مز ٢٧)

هوذا المسيح ما يزال واقفا وحده يقرع على الباب حتى اذا فتحت له يدخل ويتعشى معك وأنت معه ·

فهل لا تزال مصرا أن تتركه واقفا وحده ؟

تأمل في النور والظلمة

« في البدء خلق الله السماوات والأرض • وكانت الأرض خربة وخاوية ، وعلى وجه الغمر ظلمة ، وروح الله يرف على وجه المياه • ثم قال الله ليكن نور ، فكان نور • ورأى الله النور أنه حسن • وفصل الله بين النور والظلمة • دعا الله النور نهارا ، والظلمة دعاها ليلا • وكان مساء وكان صباح يوما واحدا » •

(تك ١ : ١ ـ ٥)

لم تقل يا رب « لا تكن ظلمة » ، وانما قلت « فليكن نور » ، فكان نور ، وبقيت الظلمة ، ووجد الاثنان معا ••

فلماذا لم تقض على الظلمة ، ما دام النور الذى رأيته كان حسنا فى عينيك ؟ لماذا أبقيتها ؟ ولماذا أعطيتها اسما ؟ ولماذا سمحت أن يكون لها سلطان ، وقلت « هذه ساعتكم وسلطان الظلام » (لو ٢٢ : ٥٣) ؟!

لماذا لم تجعل الكل نهارا ، والكل نورا ، أيها النور الحقيقى ، النور الذى لا يدنى منه ؟ لماذا سمحت بأن يكون الظلام موجودا ،

وبأن يحبه الناس أكثر من النور ؟ ! كان بامكانك أن تلغى الظلام الغاءا فلا يكون ، أو لا تسمح بوجوده قبل أن يوجد • ولكنك أبقيته على الرغم من أنه لا يتفق مع طبيعتك ! فلماذا ؟

ان كنت قد سمحت أن يعيش الزوان مع الحنطة الى يوم الحصاد ، حيث يلقى الزوان فى النار ، فهل للظلمة أيضا وقت تنتهى فيه ، ويعيش أبناء النور فى النور ، النور الذى لم يستطيعوا الدنو منه عندما كانوا فى الظلام ؟ ولكن أليس حقا أن الأشرار يخلدون فى الظلمة الخارجية ؟ اذن فالظلمة الخارجية خالدة هى أيضا ! ولكن خارج أورشليم السمائية ، بعيدة عن أولاد الله وبينها وبينهم هوة عميقة •••

متى وجد الظلام ؟ « كان على وجه الغمر ظلمة » • كان ذلك فى بدء الخليقة كلها ، قبل أن يقول الرب « ليكن نور » ! فمنذ متى كان الظلام ؟ ••

عندما كان الله وحده فى الأزل ، لم يكن هناك ظلام ، لأنه لم يكن هناك سوى الله وحده ، والله نور • اذن فالظلام حدث • فمتى حدث ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ أجبنى يا رب فاننى لا أعرف •••

هل كانت الظلمة أقدم من النور بالنسبة الى الخليقة ؟ وما علاقة هذا بنظرية السديم ؟ بلا شك أن النور كان هو الأقدم • يقال أن هذه ـ الظلمة من الناحية الطبيعية ـ حدثت من فاعلية حرارة المجموعة الشمسية المنيرة فى الغمر ، فتبخرت المياه بكثرة وسرعة ، ومن كثرة البخر تكون ضباب كثيف جدا حجب نور السديم ، فصار على وجه الغمر ظلمة •• على أننى لا أريد أن أهبط الى مستوى هذا التفكير المادى ، انما على أن أتأمل فى النور كما ينبغى •••

« كان على وجه الغمر ظلمة » • اذن كان هناك غمر ، وكانت هنــاك أرض ، وكانت هنــاك ظلمة • **لم تكن الأرض تعرف الله ، ولا كان الغمر يعرفه ، فهل عدم معرفة الله كان هو الظلمة ؟** عندما كان روح الله يرف على وجه المياه ، والمياه لا تعرفه « النور أضاء فى الظلمة ، والظلمــة لم تدركه » ؟ ! ثم قال الله « ليكن نور » ، فكان نور • أكان ذلك النور هو سر تلك الآية الجميلة « السماوات تحــدث بمجد الله ، والفلك يخبسر بعمل يديه » (مز ١٩ : ١) ؟

هل هذا هو أول نور دخل الى العالم ؟ ولكن واضح أنه بدخوله لم ينته زمن الظلمة • فلماذا كانت الظلمة اذن ؟ أريد يا رب أن أعرف • فهمنى أنت • أنر عقلى وروحى لأفهم أقوالك المحيية ••

وهناك أنواع من النور : قيل عن الشمس والقمر والنجوم انها نور • وقال الرب لتلاميذه « أنتم نور العالم » • وقيل عن الابن (الاله المتجسد) انه نور من نور ، حل بيننا ورأينا مجده • وقيل عن الآب (الذى لم يره أحد قط) انه نور لا يدنى منه • وقيــل عن قبول الانسان لعمل الله فيه انه استنارة ••• والخير عموما يسمى نورا ، والبر يسمى نورا ، والحكمة والمعرفة تسمى نورا •

فى بادىء الأمر خلق الله النــور المادى الذى ندركه بالحس ، ورأى الله النور انه حسن • ولكن هذا النوع هو أقل درجــة من درجات النور • هناك نور آخر يتدرج فى الخليقة الحية حتى يصل الى الانسان الذى يمكنه بالروح أن يدرك الله ذاته • فما هو كنــه النــور فى النبات والحيوان بأنواعهما ؟ وما هى درجات رقيهما عن الجماد ؟ وما علاقة كل هذه الخليقة بالله قبل خلق الانسان ؟ وما علاقته به بعد خلقه ؟ الله نور ، يفيض من نوره على الطبيعة فتنير ، وأيضــا على العقــل والنفس والحس والروح ، فيكون نورها من

فيض نوره ولكن ليس من جوهره • كما أن الله هو الحياة ، وقد أعطى الخليقة حياة ولكنها ليست من جوهره وانما من فيضه • والله هو عقل وروح ، وقد أعطى الانسان عقلا وروحا ، ولكنهما من فيضـــه أو من نعمته ••• وهكذا •

لماذا رأى النور أنه حسن ؟ لأنه موافق لطبيعته • فالله نــور ليست فيه ظلمة البتة • ان الظلمة ليس فيها الله ، والا أصبحت نورا • والذين يخضعون للظلام ، سوف يلقون فى الظلمة الخارجية، أى خارج نطاق التمتع بالله •

ان كان الله قد فصل بين النور والظلمة ، فكيف دخلت الظلمة الى الانسان ؟ وكيف تأصلت فيه ؟ وكيف أحبها أكثر من النور ؟ انها اسئلة ، اتركها لتأمل كل منا •••



من أول هذه المقالات بعض تأملات منذ سنة ١٩٥٥ وما بعدها •

عندما أجلس إلى ذاتى

انها يا رب ساعة مباركة ، تلك التى أجلس فيها الى ذاتى · ذلك لأنى عندما أجلس الى ذاتى ، انما أجلس معك · اذ أنت فى داخلى ، وان كنت لا أراك كما كنت فى العالم ، والعالم لم يعرفك ·

لذلك يا رب كانت احدى خطاياى الكبرى فى العالم ، هى الهروب من ذاتى ·

لم يكن لى وقت لأجلس فيه مع ذاتى · وكل وقت كنت تفرغنى فيه من المشغوليات والاهتمامات ، وتعطينى فرصة أجلس فيها الى ذاتى ، وأجلس فيها معك ، كنت أنا ـ لفرط جهلى ـ أبحث عن مشغولية جديدة أو اهتمام جديد ، لأشغل بها الوقت ! كأن الجلوس الى ذاتى نوعا من الكسل ! كنت وأنا فى العالم أعرف نظريا أهمية الجلوس الى النفس ، ولكننى من الناحية العملية لم أعر هذا الأمر اهتماما · أو أن الشيطان لم يسمح لى أن أهتم بذلك · فكنت مشغولا على الدوام ، مشغولية مستمرة لا تنقطع ··

من أجل ذلك يا رب ، لم أر الكنز الموجود داخل نفسى ، الذى هو أنت ···

وعندما كنت أجلس بعض الوقت الى ذاتى ، وأرى ولو شعاعا ضئيلا من ذلك الكنز ، كنت أخفيه الى أن أجد وقتا أطول أتفرغ

فيه له ، كنت أخفيه حتى أذهب أولا ، وأدفن أبى . وأرى حقلى واختبر بقرى !

وأخيرا يا رب ، عندما سمحت لى فى يوم ما لا أستطيع تحديده تمـــاما ، أن أجلس الى نفسى تلك الجلســة الطويلة الهـــادئة - واكتشف ذلك الكنز المخبأ فيها ، عنـــد ذلك بعت كل شىء واشــتريته ذلك الكنز الذى هو أنت ، فصرت لى ...

وهأنذا يا رب أعترف لك :

اننى عندما أجلس الى نفسى ، أشعر فى كل مرة أن نفسى أثمن من العـــالم كله « لأنه ماذا يستفيد الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفســـه ؟! » .

وعندما أشعر أن نفسى أثمن من العالم ، يصغر العـــالم فى عينى جدا ، وآخذ منك نعمة الزهد فى كل شىء . وعندما أزهد كل شىء ، أنظر فأجدك أمامى تشجعنى وتقول لى « لا تخف ... أنا معك » .

وعندما أجلس يا رب الى ذاتى ، واكتشف ما بداخلها ، وأرى أيضا ما فعله الغرباء الذين تطاولوا على مقادسك فيها ... عندما أرى ذلك ، وأعرضه عليك ، لكى تحفظ من الغرباء نفسى ، عندئذ تطول بى الجلســة ، وأجد أشــياء كثيرة لأقولها لك ولها . عنــد ذلك تضــؤل أمامى التعزيات البشرية ، ولا أبحث عــن الاســتئناس بالناس ، بل بالأكثر أحب الوحدة والخلوة والسكون ، حتى لا أحرم من تلك الجلســة اللازمة لى جدا ، التى تجلب لى الانســحاق والنقاوة . وأحيانا يا رب ، عندما أجلس الى ذاتى وأتعمق فى بحثى داخلها ، أجد فى بعض أركانها حيات وعقارب كامنة نائمة ، أو هى تحاول أن تأكل حبات قلبى فى صمت أو فى خفية ، وتنفث سمومها فى دمى وفى فكرى وفى مشاعرى ، دون أن أدرى ...

وهذه عنـدما كنت أنظر اليها ، كانت تسـتيقظ وتلدغ ضميرى وتتعبنى · ولكنى كثيرا ما كنت أتركها نائمة حتى لا تتعب نفسى ! ولكن ما الفائدة يا رب فى أن أتركها هكذا ، وأتعامى عنها باحثا عن نياح نفسانى ؟! خداع هو فى الحقيقة ، وهروب من النفس ···

أليس من الأفضل أن أكشف هذه الحيات وأقاتلها ؟ ارحمنى يا رب فانى ضعيف ، وشاعر بضعفى وعجزى عن مقاتلة أصغرها · الأصلح أن أكشفها لك يا رب ، وأنت تقاتل عنى « على رجز الأعداء تمد يدك وتخلصنى يمينك » ·

وعندما أجلس يا رب الى نفسى ، أعرف حقيقتى ، وأدرك اننى تراب ورماد قدامك ، فتتضع نفسى فى داخلى ، وتشعر بأن مجـد العالم انما هو طلاء خارجى زائف لا يغير من حقيقة النفس شيئا ···

وعندما أجلس الى ذاتى وأشعر بضعفى ، ألتصق بك بالأكثر · متأكدا أننى بدونك لا أستطيع شيئا · وكلما ألتصق بك ، تكشف لى ذاتك ، فأرى أنك أبرع جمالا من بنى البشر ، فأحبك ، وأحب الجلوس معك أكثر من جلوسى مع سائر الناس ··· وفى كل مرة أعرف عنك شيئا جديدا ، فتزداد نفسى تعلقا بك ···

اعطنى يا رب أن أترك الناس ، وانشغل بنفسى ، لأربطها بك · ثم أعطنى يا رب أن أنسى نفسى ، وأنشغل بك ···

اكشف لى ذاتك

لست أنا يا رب الذى أذهب اليك ، لأنى لا أعرف طريقـة الوصول جيدا ، عقلى قاصر ، وروحى حبيسـة ، وأنا أيضا مربوط الى الجسد • وهناك أشياء كثيرة تعطلنى : منها شهواتى ورغباتى ••• وأيضا يا رب لأنى أحيانا أريد أن أتقرب اليك !!

ثم أنى يا رب ، مشغول عنك ! لدى اهتمامات كثيرة تعطلنى • وأنا من فرط شقاوتى وجهلى لا أنزع عنى الاهتمامات الباطلة وانما أزيد عليها فى كل يوم شيئا جديدا ••• فتعال أنت يا رب الى • اكشـف لى ذاتى وافتقدنى ـ كابن أو كعبـد ـ أنت يا مـن كلك محبـة ، بل أنت المحبة كلهـا •

لست أنا يا رب الذى أبنى لك بيتا فى قلبى لتسـكن فيـه ، لأنه « ان لم يبن الرب البيت ، فباطلا تعب البناؤون » ••• من أنا حتى أبنى لك هيكلا مقدسـا يحل فيـه روحك عندى ؟ أنت يا رب تبنى أورشـليم • فتعال ولا تنتظرنى ، اذ قـد يطـول انتظـارك ولا أجىء •••

ليس بجهدى يا رب ، ولكن بمعونتك ، ليس بقوتى ، ولكن بنعمتك • أنا من ذاتى لا أسـتطيع أن أعرف ، لكن أنت تسـتطيع بمحبتك أن تكشف ذاتك لى •

وأنت لا تكشف لى ذاتك ، ان لم أحبـك • ولكن كيف أحبـك ان لم تكشف لى ذاتك • اكشـف ذاتك لى حتى ينمو حبى لك •

لأنى كلما أرى فيك شيئا جديدا ، يزداد حبى لك بالأكثر ، وتتوطد علاقتى بك • اذ كيف يمكن أن يحب الانسان بمحبة حقيقية كائنا ان لم يعرفه ولم يره ومعلوماته عنـه غامضـة ؟ !

فاكشف لى ذاتك اذن ، لأن هذا هو المصـدر الوحيـد الذى أعرفك به معرفة حقيقية : ليس عن طريق الناس أو الكتب ، بل معرفة الذى رأيناه بأعيننا ولمسناه بأيدينا •••

اننى لا أستطيع أن أعرفك معرفة كاملة عن طريق الكتب أو عن طريق الناس الذين عرفوك ، اذ أن هؤلاء أيضا لا يستطيعون أن يعبروا عما رأوه فيك من صفات لا ينطق بها ، ولا يقوى لسان أن يتحدث عنها • بل كل ما يسـتطيعونه أنهم يشـوقون السـامع أو القارىء بقولهم : « تعال وانظر ما أطيب الرب » أما أن يوضحوا حقيقتك فليس بامكانهم !

ولكن ان كشفت لى ذاتك يا رب ، فكيف أسـتطيع أن أرى وجهك بينما بدون القداسة لا يعاين أحد الرب ؟ ! والقداسة أمر ليس فى امكانى ، فقد كثر الذين يحزنوننى واعتزوا أكثر منى ، وأنا ضعيف أمامهم جميعا : أمام العالم والجسد والشيطان ، وأمام الرغبات والشهوات والأفكار •

كثيرا ما أسقط ، وكثيرا ما أزل • والقداسة حلم أشـتهيه ولكن أين لى به ! فهل معنى هذا أننى سوف لا أراك ؟ ••• اعطنى يا رب نقاوة القلب التى بها أرى وجهك • انضح على بزوفاك فأطهر • اغسلنى فأبيض أكثر من الثلج •

❀❀❀❀

محبة الطريق

لماذا أصلى ؟ ولماذا أصوم ؟ ولماذا أختلى ؟ ولماذا أقرأ ؟ ..

هل لكى أصبح رجل صلاة ، أو رجل صوم أو خلوة أو معرفة ؟

هل أحب أن أكون عابدا ؟ هل العبادة شهوة مستقلة فى نفسى لها غرض خاص ؟

هل أريد أن تكبر نفسى ، أو أن أكبر فى عينى نفسى ، عن طريق النجاح والنبوغ فى هذا الطريق ! ؟

هل أنا مهتم بذاتى : ماذا أكون ؟ وكيف أكون ؟ ومتى أكون ؟ وكيف أتطور الى أفضل ؟ ...

هل أنا أحب الله ذاته ، أم أحب الطريق الذى يوصل اليه ؟

هل أنا مثلا أحب الصلاة ، أم أحب الله الذى أصلى اليه !؟

اننى ألاحظ فى نفسى أحيانا أخطاء كثيرة :

عندما أكمل مزاميرى أفرح : لا لأنى تحدثت مع الله ، وانما لأننى راهب ناجح فى القيام بقانونه وواجبه فى العبادة !! وعندما لا أستطيع أن أصلى مزاميرى جميعها ، أحزن : لا لأنى فقدت متعة التحدث مع الله ، وانما لأنى راهب فاشل !! وهكذا أيضا فى صومى ، وفى سهرى ، وفى قراءاتى ... !

المسألة اذن شخصية بحتة . هى أنانية واضحة . أريد فيها أن أكبر فى عينى نفسى على حساب صلتى بالله .. ؟

متى يأتي الوقت الذى لا أصلى فيه مزمورا واحدا ، ومع ذلك أكون سعيدا لانى على الرغم من ذلك كنت ثابتا فى الله عن طريق آخر من العبادة ٠

هل أنا أصلى من أجل لذة ومتعة الحديث معك ، وحلاوة الوجود فى حضرتك ، أم من أجل أن أكتسب فضيلة أصل بها الى الحياة الأخرى ؟ أم أننى أصلى لكى أتحدث معك حديثا أطلب فيه تلك الحياة ؟

هل الصلاة فى نظرى هدف فى ذاتها أم مجرد وسيلة ؟

ان كنت أثور على انسان عطل خلوتى وصلاتى ، ومن أجل الصلاة والخلوة ، أفقد سلامى الداخلى ، وأفقد سلامى مع الناس ، وبالتالى يتعكر قلبى وافقد سلامى مع الله أيضا ، اذن فقد أصبحت الصلاة هدفا لا وسيلة ، وفى سبيل هذا الهدف قد أنحرف وأخطىء !!

ان العبادة هى مجرد طريق يوصل الى الله ، ولكن الهدف هو الله ذاته ٠ والمحبة طريق ، والخدمة طريق ، ولكن واحدا هو الهدف ، أعنى الله ٠٠ لماذا اذن نفقد الله من أجل المحافظة على الطريق الذى يوصل اليه ؟ ! ومن أجل أن يكون هذا الطريق فى الوضع الذى نشتهيه ؟ !

فلنحب الطريق لا لأنه شهى فى ذاته ـ وحقا هو شهى ـ ، وانما لأنه يقودنا الى الله ٠ ولنسرع فى الطريق ونعبره بسرعة لنصل اليه ٠

والكمال هو أن يكون طريقنا الى الله ، هو الله ٠ لأنه ذاته ٠٠ هو الطريق ٠

* * *

اتركينى الآن

« هذه المقالة ليست لكل أحـد ،
انها درجة روحية معينة ، الذين هم
أقل منها ، لا ينتفعون بها » ٠

هو ذا أنا هكـذا يا رب أتدخل باسـتمرار فيما لا يعنينى ٠ لست أقصد التدخل فى شئون غيرى من الناس ، كيف يتصرف ، وكيف تتصرف أنت معه ـ ولو أننى أقع كثيرا فى هذا الخطـأ ـ وانما أقصد تدخلى فى شئون نفسى ٠ بينما هى أمور لا تعنينى أنا بقدر ما تعنيك أنت ! ٠٠٠

نفسى ليسـت ملكى ، وانمـا هى ملكك ، اشـتريتها بدمـك الكريم فأصبحت لك ٠ وليس لى بعد أن أتدخل فى شئونها ، لأنك أنت تدبرها حسب مشيئتك الصالحة الطوباوية ٠

على اذن أن أنظر وأمجدك ٠

متى يأتى الوقت الذى لا أتدخل فيه فى شئون نفسى ، وانمـا أتركهـا لك : حيثما تسيرنى أسير ، وكيفما تصيرنى أصير ؟ متى أرضى بحالتى التى ارتضيتها أنت لى ، فلا ألح عليـك فى تغييرها كأنك غافل عن صالحى ؟!

متى تتحول صلاتى من طلب الى شكر ؟ أو متى أبحث عن شىء أطلبه فلا أجد ، لأنى لست أجد شيئا خيرا لى الآن مما أنا فيه ؟٠٠

متى يأتى الوقت الذى يصبح فيه عملى الوحيد هو ألا أعمل شيئا ، وانما أترك نفسى فى يديك وأنساها هناك ، ولا أذكر الا هاتين اليدين اللتين جبلتانى وصنعتانى واللتين كنت تضعهما على كل واحد فتشفيه ٠

متى أؤمن بك الايمان كله ، فأستأمنك على حياتى تدبرها كيف تشاء ، أنت يا صانع الخيرات ، دون أن أقحم نفسى فى عملك هذا ، وأتلصص متجسسا عليك لأرى ماذا تعمل بى !! وكيف تعمل !! وهل عملك مقبول أم لا !! وهل يستدعى الأمر تدخلا منى أم لا يستدعى ؟ !

آه يا رب كم أنا وقح فى تصرفى معك ! جاهل أنا وأتدخل فى أعمال حكمتك محاولا أن أوقفها لأنفذ مشورتى الغبية !! كم يكون أحكمنى لو أننى سكت وأخذت منك موقف المتفرج لا موقف الشريك ٠ اذن لكنت أرى عجائب من حكمتك ٠٠٠

اننى يا رب أفكر كثيرا فى ذاتى ، ولا أفكر ولو قليلا فيك ٠ اننى أثق كثيرا بذاتى ، ولا أثق ولو قليلا بك ٠ ذاتى هى صنمى ، متى يتحطم لكى أعبدك العبادة الحقة ؟ ان كنت لا أحطم بنفسى هذا الصنم لكونه جميلا فى عينى ، أو لكونه محبوبا لدى جدا ، فتول أنت يا رب تحطيمه ، وعند ذلك لا يبقى لك منافس فى قلبى فأحبك ، ولا يبقى لك منافس فى ايمانى فأعبدك ٠ لو كنت يا رب أفكر فيك بقدر ما أفكر فى ذاتى ، ولو كنت أعتمد عليك بقدر ما أعتمد على مقدرتى الخاصة ، ولو كنت أحبك بقدر ما أحب نفسى ، اذا لأصبحت مثل اولئك القديسين الذين انكروا انفسهم ليعرفوك ٠

متى تعتقنى يا رب من ذاتى ؟ متى ؟ لا لكى أصير قديسا ، وانما لكى أجدك ٠

متى تخرج من الحبس نفسى ، وتطلق عبدك بسلام ؟ متى أضيع ذاتى من أجلك لكى أجدك ؟ وحينئذ أجدها فيك • متى أهلك ذاتى من أجلك ؟ اذن لكانت تحيا بك • متى أنظر الى ذاتى فلا أجدها ، وانما أجدك أنت ، متى أنظر اليها فأراك ؟ ومتى أنظر الى العالم فأراك ؟ والى الناس فأراك ؟ وتصبح أنت لى الكل فى الكل وليس سواك •

هى تبيد وأنت تبقى ، وكلها كثوب تبلى ، وكرداء تطويها فتتغير • ولكن أنت أنت وسنوك لا تفنى •

قالوا لى : « اعرف نفسك » • وقالوا لى : « أدخل الى ذاتك » • آه يا رب هى ذاتى هذه سبب متاعبى كلها •• متى أدخل اليها فلا أجدها ؟ ! ••

كم مرة نظرت الى ذاتى فوجدتها معلقة على الصليب بلاحراك • فلما أمعنت النظر اليها ، أبصرتك أنت ، ففرحت • لم أفرح بذاتى لأنها ورثت الملكوت وانما فرحت بك لأنى وجدتك •

ويخيل الى أننى سوف لا أجدك فى كل مرة الا هناك فى وادى ظل الموت ، لاننى ان سرت فى وادى ظل الموت فأنت معى • لقد خلقتنا للحياة ، ولكننا بخطيتنا اخترنا لنا الموت ، فاذا بك أنت البسيط الذى كل شىء طاهر قدامك ، تقدس الموت وتجعله لنا بابا للحياة !! بل هو الباب الوحيد للحياة • « من وجد نفسه يضيعها ، ومن أضاع نفسه من أجلى يجدها » • « أنكر ذاتك واحمل صليبك واتبعنى » •

فى السنة الأولى من حياتى الرهبانية قرأت لقديسيك ان الرهبنة هى انحلال من الكل للارتباط بالواحد • فعلى قدر استطاعتى حبست نفسى عن العالم والناس • ولكن هذا لم يوصلنى الى

الارتباط بك • لانني لم أدخل الى الوحدة من أجلك ، وانما من أجل نفسى • اما لترضى هى عن ذاتها ، أو ليرضى الناس عنها •

لكنني فى السنة الثانية عرفت معنى الانحلال من الكل بتفسير آخر ، وهو الانحلال من نفسى • لانني أجعلها بالنسبة الى الكل فى الكل •

وفى السنة الثالثة أى معنى سأعرفه لهذه العبارة ؟ لست أدرى • ليتنى أكون قد نسيتها ، ونسيت التفكير فى معناها ، من فرط الانشغال بك •

كنت أقول عن اجتماعى بالاخوة ، أننا باجتماعنا معا على الأرض هنا نعطل أنفسنا عن الانشغال بالله ، وربما نتسبب بذلك فى عدم اجتماعنا كلنا هناك معه فى الأبد • وأريد الآن أن أقول ان اجتماعى بنفسى هو الذى يعطلنى بالأكثر •

اننى أشعر أننى محتاج ، بين الحين والحين ، كلما أخلو الى نفسى ، أن أقول لها : « اتركينى الآن ، فهذا خير لنا » اتركينى لكى أخلو بالله ، وبهذا أستطيع أن أتمتع بوعده من أن تثبتى فيه » • فأجلس ـ لا مع ذاتى وانما مع الله الحال فى ذاتى •



ربنا موجود

أنت يا رب موجود ، يحس الضعفاء وجودك فيتعزون ، وان تنكر الأقوياء وجودك يرتعشون • لذلك فعبارة « ربنا موجود » تبهج وترعب ، تعزى وتكدر •

ولكن على الرغم من وجودك ، فان كثيرين لا يحسونه ، وهكذا صاح سليمان الحكيم قائلا : « ثم رجعت ورأيت كل المظالم التى تجرى تحت الشمس • فهوذا دموع المظلومين ولا معز لهم ••• » (جا ٤ : ١) فلماذا يا رب تنظر وتصمت ؟!

ارنا يا رب رحمتك • اثبت وجودك • لماذا يعيروننا قائلين : « أين الرب الهكم ؟ ! » لماذا تنتظر حتى الهزيع الأخير من الليل ، والتلاميذ مضطربون فى السفينة ، والأمواج شديدة ؟ ! نعم ، لماذا تنتظر ، بينما يقول الكتاب انك تأتى ولا تبطىء ؟ !

اسرع يا رب أسرع • لقد شكا داود من هذا الابطاء ، فقال : « اللهم التفت الى معونتى ، يا رب أسرع وأعنى • أنت معينى ومخلصى يا رب فلا تبطىء » (مز ٦٩) نحن نعلم أن رحمتك ستأتى ، وأنه ليس لنا أن نعرف الأزمنة والأوقات التى جعلتها فى سلطانك وحدك • لذلك سننتظر كل الوقت ، كما قال المرتل « أنتظرت نفسى الرب من محرس الصبح حتى الليل » •••

ها نحن يا رب ننتظر ، مؤمنين أنك موجود ، وأنك لابد ستعمل • وستعمل بقوة ، وبحكمة ، وفى الوقت المناسب الذى

تحدده رأفاتك غير المحدودة ·· ما أجمل قول ربنا يسوع : « أبى يعمل حتى الآن ، وأنا أيضا أعمل » ··· فأعمل يا رب اذن ، اعمل من أجل محبتك للعدل وللصلاح · واعمل من أجل أن يطمئن الناس ، فيسلموا حياتهم فى يديك ، ويتأملوا عملك وهم صامتون ، أو يتأملوا عملك وهم ينشدون تلك الأغنية الجميلة « الرب يقاتل عنـكم وأنتم تصمتون » ·

بل هم يتأملون عملك ، فيتغنون وهم مطمئنون «ربنا موجود» ، نعم حقا : « **ربنا موجود** » ···



كتب هذا المقال ونشر سنة ١٩٦٥ ·

نظمت هذه القصيدة فى المغارة سنة ١٩٦٠ ·

من تكون؟

كل ما هو لك صمت وسكون   وهدوء يكشف السر المصون
اعتزلت الناس حتى ما ترى   غير وجه الله ذى القلب الحنون
وتركت الكون بل أنسيته   لم يعاودك الى الكون الحنين

* * *

هل ترى العالم الا تافها   يشتهى المتعة فيه التافهون
كل ما فيه خيال يمحى   كل ما فيه سيفنى بعد حين
هل ترى الآمال الا مجمرا   يتلظى بلظاه الآملون
لست منهم · هم جسوم بينما   أنت روح فر من تلك السجون

* * *

قد يقول البعض هذى حكمة   ويقول البعض كلا بل جنون
فاترك الناس الى أفكارهم   مثلما شاء الهوى يفتكرون
لك نهج مفرد والناس فى   منهج مختلف يضطربون

* * *

يا شبيه الله تدنيه لنا   أنت حسن تتشهاه العيون
أنت رمز كلما تبصره   نزدرى الآمال والكون يهون
أنت رمز لحياة طهرت   اشتهى الخالق يوما أن تكون
أنت لحن الروح يسرى هادئا   يسكب النشوة فى القلب الأمين

* * *

أنت قلب هائم فى حبه   أنت سر ليت شعرى من تكون
أنت سر لست أدرى كنهه   أى شىء فيه لى غير الظنون
أنت روح سابح فى عمقه   يجتلى الأعماق فى صمت رصين
ان فى صمتك سرا لن يرى   قدس أقداسه الا الصامتون

أبواب الجحيم

كم قســا الظلم عليـك   كم سـعى الموت اليك
كم صدمت باضطهادات   وتعـذيب وضـنك
كم جرحت كيســوع   بمســامير وشــوك
عــذبوك وبنيــك   طــردوك ونفــوك
ورميـت بأكانيــب   وبهتــان وافــك
عجبــا كيف صمدت   ضــد كفران وشرك
هو صـوت ظـل يدوى   دائمــا فى أذنيك
يشــعل القـوة فيـك   حين قـال الله عنـك
ان أبـواب الجحيـم   سـوف لا تقوى عليـك

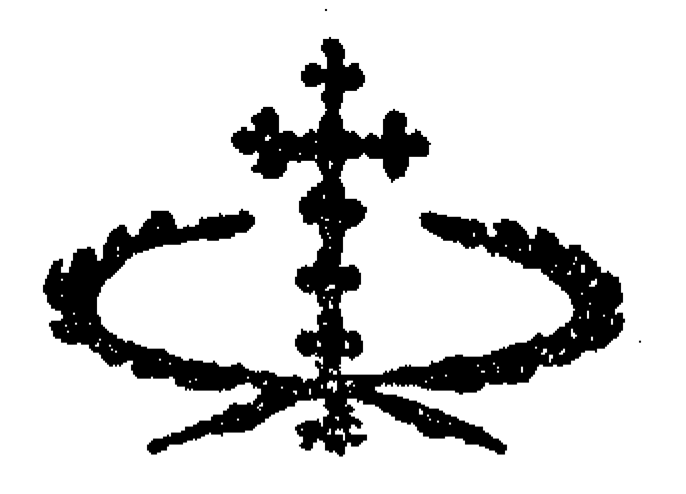
* * *

لست فى أرض ولـدت   قد ولدت فى السـماء
أنت من روح طهـور   لسـت من طين ومـاء
أنت حـق أنت قدس   أنت نـور وضــياء
لك حقــا ابتــداء   انمــا ليس انتهــاء
ان سـئلنا عنـك قلنا   ألف أنت ويــاء
من رواك ؟ هـل رواك   غير ينبوع الدمـاء ؟
من حماك ؟ هل حماك   غير أقنـوم الفـداء ؟
فاطمئنى واســتريحى   انما المصـلوب معـك
ان أبـواب الجحيـم   سوف لا تقوى عليـك

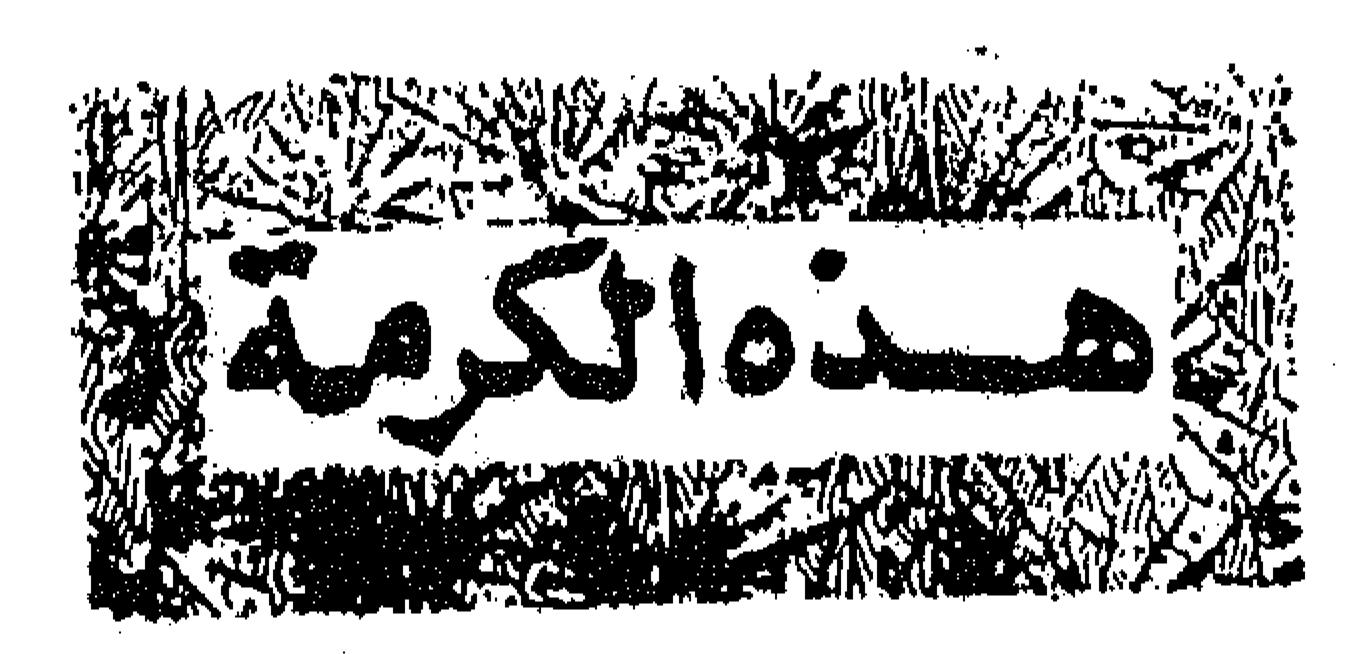
* * *



اسـألى عهـد المعز فهـو بالخبـرة يعـلم
اسـأليه كيف بالايمان حركت المقطـم
جبـل قـد هـز منـك واذا شـئت تحطـم
أيهـا النـاسى رويـدا قلب التـاريخ تفهم
قل لمن يدعى عظيمـا ان رب القبـط أعظـم
كل قبطـى وديـع انمـا فى الحق ضيغم
لا يخـاف الموت اذ بالدين قد داس جهنم
وهو لا يهتم بالجسم فـان الـروح أكـرم
وهو يعطى الروح أيضا قائـلا فى غير شـك
ان أبـواب الجحيـم سـوف لا تقوى عليك



نظمت هذه القصيدة سنة ١٩٤٦ .



نظمت هذه القصيدة
في سنة ١٩٤٨ .

صلاة :

هذه الكرمة يا مولاى من غرس يمينك
نبتت من شوكة كانت على طرف جبينك
ورواها دمك القانى وسيل من جفونك
ورعاها حبك الصافى وذاقت من حنينك
فنمت فى جنة الايمان تحيا في يقينك
ومضت تحمل للأقباط من أثمار دينك

* * *

غير أن الريح يا مولاى قد طاحت بغصن
شردت طيره فى الكرمة من ركن لركن
طار لا يشدو ولكن شاكيا من ذا التجنى
انت يا من قلت من يمسسكموا قد مس عينى
فرح الأطيار فى الكرمة وامح كل حزن
واصلح الأمر فهذا الغصن من أقوى غصونك
هذه الكرمة يا مولاى من غرس يمينك

* * *

ليس لى يا خالقى الجبار أن أفهم قصدك
فغبى أنا يا قدوس والحكمة عندك
غير انا قد تركنا من لنا يا رب بعدك ؟!
ليس الا وعدك الماضى فهل تذكر وعدك ؟



أنت لا تنســـاه مهما نسى الكرام عهــدك
كيف تنسى أبرام مختارك أو يعقوب عبدك ؟
كيف تنسى الحب والاشفاق أو ماضى حنينك
هــذه الكرمة يا مولاى مــن غرس يمينــك

* * *

نحن منقوشون فى كفك لا نخشى اضطرابا
نحن أخطــأنا ولكن ســوف لا نفنى عقابا
هوذا الرحمــة تنصب من الآب انصــبابا
كلمـــا نغلق بابا تفتح الرحمـــــة بابا
آه يــا مولاى يــا من عرف الخــل شرابا
شــعبك المسكين يا قدوس قد قاسى العذابا
أنظر الكرمة بعد الخصب قد أمست خرابا
واشفق اليوم عليها فهى لا تحيــا بدونك
هــذه الكرمة يــا مولاى من غرس يمينك

أبطال

الى الابطــال الذين أدركــوا سر الحياة الحقيقية فهتفوا مع القديس بولس « لى الحياة هى المسيح والموت هو ربح . لى اشــتهاء ان أنطلق وأكون مع المسيح ذاك أفضل جدا » .

نلتم الأمجاد فى دنيا ودين ... وهزأتم بالطغــاة الملحدين
لم تموتوا أيها الأبطال بل ... قد سكنتم فى سماء الخالدين
لم يمت من قاوم الكفر ومن ... بيسوع هز عرش الكافرين
لم يمت من صار باستشهاد ... قدوة تبقى على مر السنين
لم يمت من قدم الروح على ... مذبح الحق جريئا لا يلين
لم يمت كل غريب ههنــا ... مر بالدنيا مرور الزائرين

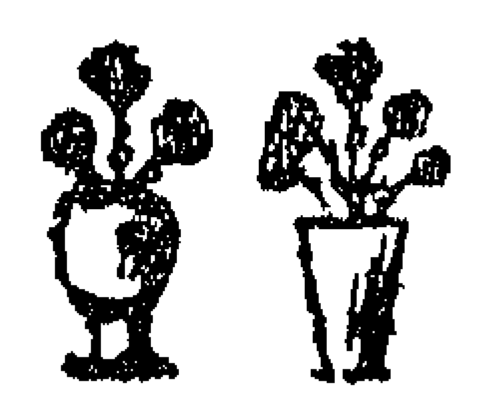
* * *

عجبا كيف صمدتم للطغاة ... فى ثبات أدهش الكون مداه
أى شىء حبب المــوت لكم ... هل رأيتم فيه اكليل الحياة ؟
أم بصرتم بيســـوع واقفا ... فى انتظار، فاستبقتم للقاه ؟
أم سمعتم مثل همس الوحى من ... قد دعاكم فاستجبتم لدعاه ؟
أم تذكرتم صليب الناصرى ... ونسيتم كل شىء ما عداه ؟
أم تخيلتم عمود الدين قد ... راح يهوى فاصطففتم لحماه ؟
أيما قد كان داعى الموت لم ... نستطع حسبانكم فى المائتين
لم تموتوا أيها الأبطال بل ... قد سكنتم فى سماء الخالدين

* * *



هذه القوة فى غير انتهاء كيف جاءتكم جموع الشهداء؟
أى سيف قد تسلحتم به أيها العزل فى ساح الدماء ؟
هل رأيتم فى دروع الأرض ما لم يلق يوما بأبناء السماء ؟
تسلحتم بقلب طاهر ودعاء مستجاب ورجاء
وبايمان قوى قادر يرجع الموتى ويشفى الضعفاء
ألهمونا بعض تقواكم فقد أظلم الكون وقل الأتقياء
وبقينا كلما نذكركم يخفق القلب ويدعو فى حنين :
لم تموتوا أيها الأبطال بل قد سكنتم فى سماء الخالدين



نظمت هذه القصيدة سنة ١٩٤٧ .

وأبٌ أنت ..

« ألقيت هذه القصيدة فى حفلة التأبين التى أقامتها اللجنة العليا لمدارس الاحد فى يوم الاربعين لانتقال طيب الذكر المتنيح حبيب جرجس » (الموافق ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥١) .

هذه تقواك : ايمان فحب — هذه دنياك : أشواك وصلب
أنت ، من أنت؟ رسول ههنا؟ — أنت أبهى من رسول ، أنت قلب
أنت قلب واسع فى حضنه — عاش جيل كامل أو عاش شعب
أنت نبع من حنان دافق — أنت عطف أنت رفق أنت حب
وأب أنت ونحن يا أبى — عشنا بالحب على صدرك نحبو
لك ابناء كثار انما — لك فوق الكل يا قديس رب

* * *

يا قويا ليس فى طبعه عنف — ووديعا ليس فى ذاته ضعف
يا نبيلا كلما عوديت كم — كنت تنسى الشر للجانى وتعفو
يا حكيما . أدب الناس وفى — زجره حب وفى صوته عطف
لك أسلوب نزيه طاهر — ولسان أبيض الألفاظ عف
لم تنل بالذم انسانا ولم — تذكر السوء اذا ماحل وصف
انما بالحب والتشجيع قد — تصلح الأعوج والأكدر يصفو
هكذا كنت حبيبا شائعا — لك صدر واسع الأرجاء رحب
وأبا كنت ونحن يا أبى — عشنا بالحب على صدرك نحبو

* * *



يا فقير عبـر الدنيـا ولم ... يمتلك من قنية الدنيا حطاما
عرض المـال عليـه فأبى ... وازدرى المال ولم يبد اهتماما
فى زمان زحف المـال الى ... خير أقداسه فأظلم اظلماما
أنت أغنى من ملوك ورثوا ... ورعاة جمعوا المال حراما
خطفوه من فم الجوعان بل ... من رضيع لم يوفوه فطاما
زاهدا عشت كريما فاضلا ... ان أغنى الناس من عاشوا اكراما
ليس عيبـا أن تولى هكذا ... انما التخزين والتكويم عيب
أنت أغنى ببنين كلهم ... عاش بالحب على صدرك يحبو

* * *

فى سـلام القلب نم فى راحة ... فى نعيم الله فى حضن الجدود
واسـمع الأنغـام من داؤد ... واللحن ينساب مع القلب الودود
واشهد استيفانوس الشماس فى ... مقدس الأبكار فى المجد العتيد
قل له قد عشـت فى نهجك بل ... كنت أيضا فى مماتى كالشهيد
قل لآبائى صـلوا واطلبـوا ... نعمة الله لذا النشء الجـديد
أذكـروهم اننى خلفتهـم ... يحملون العبء فى جيل عنيد
هكـذا كن مثلمـا كنت لنـا ... اننا أهـل وأحبـاب وصحب
وأب أنت ونحن كلنـا ... عشنا بالحب على صدرك نحبو

أغلق الباب

أغلق البـاب وحاجج　　　فى دجى الليل يسوعا
واملأ الليـل صلاة　　　وصـراعا ودموعـا

أيهـا الحـائر يا من　　　تهت فى فكر عميق
تسـأل الناس وتشكو　　　صارخا أين الطريق
هل وجدت الحـل يا مسكين والقلب الشفيق
هل أزال الناس ما عنـدك من هم وضيق ؟!
يا صديقى : سوف لا يجديك فى الدنيا صديق
ليس عنـد النـاس رأى ثابت شـاف يليـق
فحلـول لفريق ضـد أخـرى لفريق

انمـا عندى عـلاج　　　قد خبرناه جميعـا
أغلق الباب وحاجج　　　فىدجى الليل يسوعا
واملأ الليل صـلاة　　　وصـراعا ودموعـا

* * *

أيهـا المصلح يـا من تمـلأ الدنيـا لهيبـا
ثائرا للحق والاصـلاح محتـدا غضـوبا
كم لقيت العنت والتجريح والقـول المعيبـا
تحمل اليـوم صليبا وغـدا أيضـا صـليبا
يا صديقى : ان مضى الوقت نزاعـا وحروبا
واسـتمر الحال مثـل الأمس صعبا وعصيبا
فادخل المخدع واركع واسكب النفس سكيبا
قل له اشتدت وضاقت فافتح البـاب الرحيبا

قل له يـا رب انى عاجـز لن أسـتطيعا
واعرض الأمر وحاجج　　　فىدجىالليل يسوعا
واملأ الليـل صـلاة　　　وصراعا ودموعـا

وماذا بعد هذا؟

أهدى هذه القطعة الى صاحبها ، الى السيد المسيح الذى أتحفنا بقصة الغنى الغبى ، والذى أوحى الى سليمان بسفر الجامعة . (نظمت سنة ١٩٤٨) .

سأهدم فى المخازن ثم أبنى … وأجمع فضتى وأضم تبرى
واغرس لى فراديسا كبارا … بأثمار وأطيار وزهر
وأقطف وردة من كل غصن … وأطرب مسمعى من كل طير
وأسعد بالحياة ومشتهاها … وأنعم فى رفاهية وخير
وأبنى معبدا للمال ضخما … أقدم فيه قربانى وشكرى
وماذا بعد هذا ليت شعرى؟ … سألقى الموت مهما طال عمرى
وهذا المال يا ويحى عليه … سأترك كل أموالى لغيرى
وأفنى مثل مسكين فقير … وأرقد مثله فى جوف قبر
ونسمة قبره ستهب حولى … ولا تفريق بين غنى وفقر

* * *

سأسكن فى قصور شاهقات … وأحيا مثلما تشتاق نفسى
وأرقى مثلما أبغى وأعلو … وتشرق فى سماء المجد شمسى
أسير فتشخص الأبصار نحوى … وأحسب كل تاج فوق رأسى
وتحنى هامها الدنيا خضوعا … ويحتفل الوجود بيوم عرسى
وتهتف كل حنجرة باسمى … وأصبح وسط تمجيد وأمسى
وأملأ ساحة الدنيا غرورا … وأهمل كل ترتيل وقدس
وماذا بعد هذا ليت شعرى ؟ … سيجرى ضائعا يومى كأمسى
وأفنى مثل صعلوك حقير … وأرقد مثله فى جوف رمس
ونسمة قبره ستهب حولى … ولا تفريق فى مجد وبؤس

* * *

سأقضى العمر فى جد وكد		وأجلس فوق عرش العلم وحدى
وأصبح مرجعا فى كل فن		وأبنى من جلال العلم مجدى
وأغدو قبلة فى كل ناد		ولا ألقى على الأيام ندى
يسير أعاظم العلماء خلفى		ويأتى ذكرهم فى المدح بعدى
وترفع دولة الأبحاث قدرى		وتخشى دولة الأقلام نقدى
وأبدى الرأى فى ثقة بعلمى		فترتج المجامع حين أبدى
وماذا بعد هذا ليت شعرى ؟		أحقا ثروة الأفكار تجدى ؟
سأفنى مثلما يفنى جهول		وأرقد مثله فى جوف لحد
ونسمة قبره ستهب حتما		تماما مثلما ستهب عندى

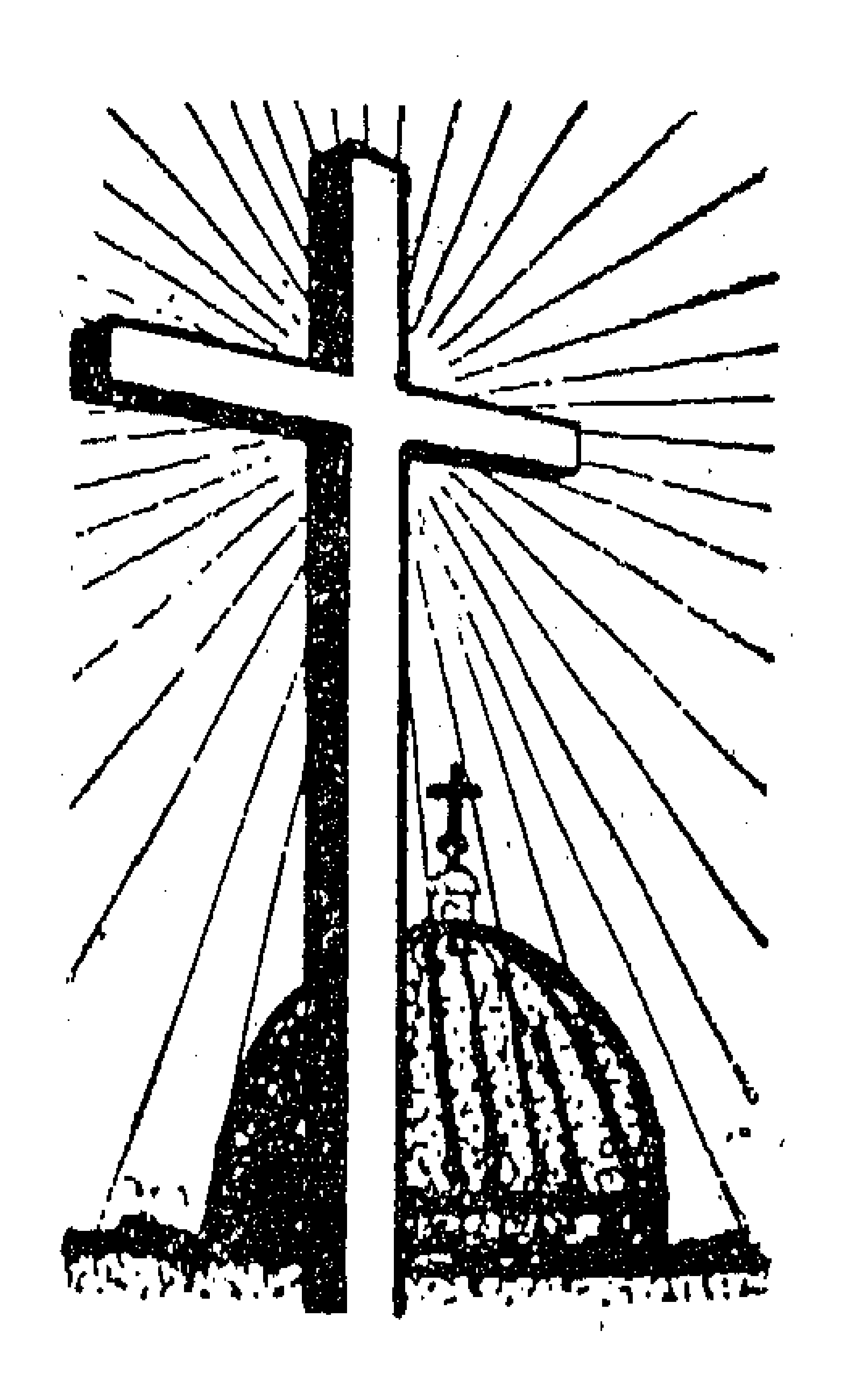
* * *

سأقضى العمر فى لهو الشباب		وأختار الطروب من الصحاب
وأترك كل نبع للمسيح		وأجرى مسرعا خلف السراب
وأصطحب المجون طوال عمرى		وأفخر بالمجون وباصطحابى
وأنفق كل يومى فى الملاهى		وأسقط بيت ربى من حسابى
وأطرب بالأغانى عابثات		وأسعد بالكؤوس وبالشراب
وأشبع مهجتى من كل طيش		وأرفض كل نصح أو عتاب
وماذا بعد هذا ليت شعرى ؟		سوى ذل وفقر واضطراب
وأفنى مثلما يفنى عفيف		وأرقد مثله تحت التراب
ونسمة قبره ستهب حولى		تمجده وتسخر من شبابى

* * *

فماذا نلت من علمى ومالى		وماذا نلت ويحى من ضلالى ؟
وماذا نلت من مجد كذوب		تبدى مثل قصر من رمال ؟
وما جدوى حياة سوف تفنى		وقد أيقنت من سوء المآل ؟
وهل فى المال عمر بعد موت		وهل جاهى سيمنع من زوالى ؟
ضلال كله لا خير فيه		واثم ليس فيه من حلال !

فوا مجـدا لسـكان البرارى وواافخرا لقس فى القـلالى
ويا طوباه من يحيـا غريبـا عن الدنيـا وعن صحب وآل
فلا يهتـم ان جـاءت وولت ولا يصغى الى قيـل وقـال
ويحيا مثـل ضيف ليس يبنى قصورا غير بيت فى الأعالى





نظمت هذه
القصيدة فى
سنة ١٩٤٦

العل هــذه الافكار كانت تجــول
بذهن يوسف ، أو تتواثب على شفتيه ،
وقد أمسكت سيدته بثوبه ٠٠٠

هوذا الثوب خذيه   ان قلبى ليس فيه
أنا لا أملك هــــذا   الثوب بل لا أدعيه
هــو من مالك أنت   لك أن تسترجعيه
فانزعى الثوب اذا شئت وان شئت اتركيه
انمــا قلبى لقــــد   أقسمت ألا تدخليه
أنـــا لا أملك قلبى   وكــذا لن تملكيــه
انــه ملك لربى   وقد اســتودعنيه
عبثـــا قربك منـــه   هوذا قلبى اسأليه

* * *

زوجك الغائب قد أعهدنى مــالا وعرضــا
بل وقد ملكنى فى   بيته طولا وعرضا
انه عهـــــد وثيق   كيفأهوى فيه نقضا
واذا ما كنت خوا   نا أخون العهد فرضا
كيفأعصى الله ربى   وبهذا الشر أرضى
ناسيا عقلى ودينى   طارحا تقواى أرضا
فابعدى عنى دعينى   ان أخــلاقك مرضى



أى فخر لك فى ثو بى وقد اخلعتنيه
هوذا الثوب خذيه ان قلبى ليس فيه

* * *

اه لو تدرين ما أعلـــم عن ابرام جـدى
قصة الطاعة والذ بح والابن المعـد
طاعة غنى بها العا لم من عهـد لعهد
طـاعة أورثتها قد أصبحت عنوان مجدى
طـاعة لله لا للشر ان الشر يردى
طاعة للروح لا للجسم ان الجسم عبدى
سأطيع الله حتى لو أطعت الله وحدى
كيف أعصى الله منقا دا لذا الشر الكريه
هوذا الثوب خذيه ان قلبى ليس فيـه



نظمت هذه القصيدة سنة ١٩٤٩

الأمومة

نام فى أمن ولكن قد سهرت — فى ارتياح ما شكوت أو وهنت
ما تركتيه على مهده بل — قد ضممت الطفل حبا واحتضنت
قد وهبتيه فؤادا خالصا — وكذا فى قلبه الغض سكنت
كل ما عندك متروك له — ما احتجزت منه شيئا أو ضننت
لم يجد فى الكون أو آماله — أى حسن انما دنياه أنت
أنت يا أماه سر غامض — أنت نبع من حنان حيث كنت

* * *

ان لى طفلا هو الطفل يسوع — قارعا دوما على باب الضلوع
له فى أعماق قلبى مذود — يبتغيه فى اشتياق وولوع

كم دعوت الطفل فى قلبى وكم
نال منى كل حب وخشـــوع

غيـر أنى جاحد فى حبـــه
كلما اشتاق يثنينى الرجوع

وأرى الشـــيطان فى اغرائه
فينادى القلب:ويحى هلأطيع؟

ليت لى يا أم قلبـــــا مثلك
طاهرا يشفق بالطفـل يسوع

كم خزنت العطف فى قلبك هل
تمنحينى البعض مما قد خزنت

أنت فى العـــــالم سر غامض
أنت نبع من حنان حيث كنت

* * *

املئى الكون حنـانا وحنينا
واسمعينا عن خفاياك أسمعينا

حـديثنا عن هـوى الأم وعن
قلبها الحانى حديث العارفينا

واذكرى العـذراء فى عليائها
كمثـــــال رائع اذ تذكرينـا

كيف ناءت من شـكوك مرة
وهى تحوى ربنا الفادى جنينا

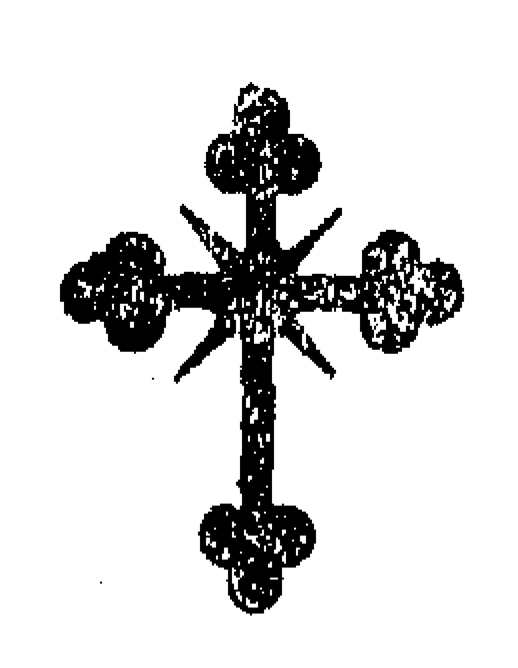
كيف حلت مـزودا محتـقرا
كيف قاست ذلة الفقر سنينا

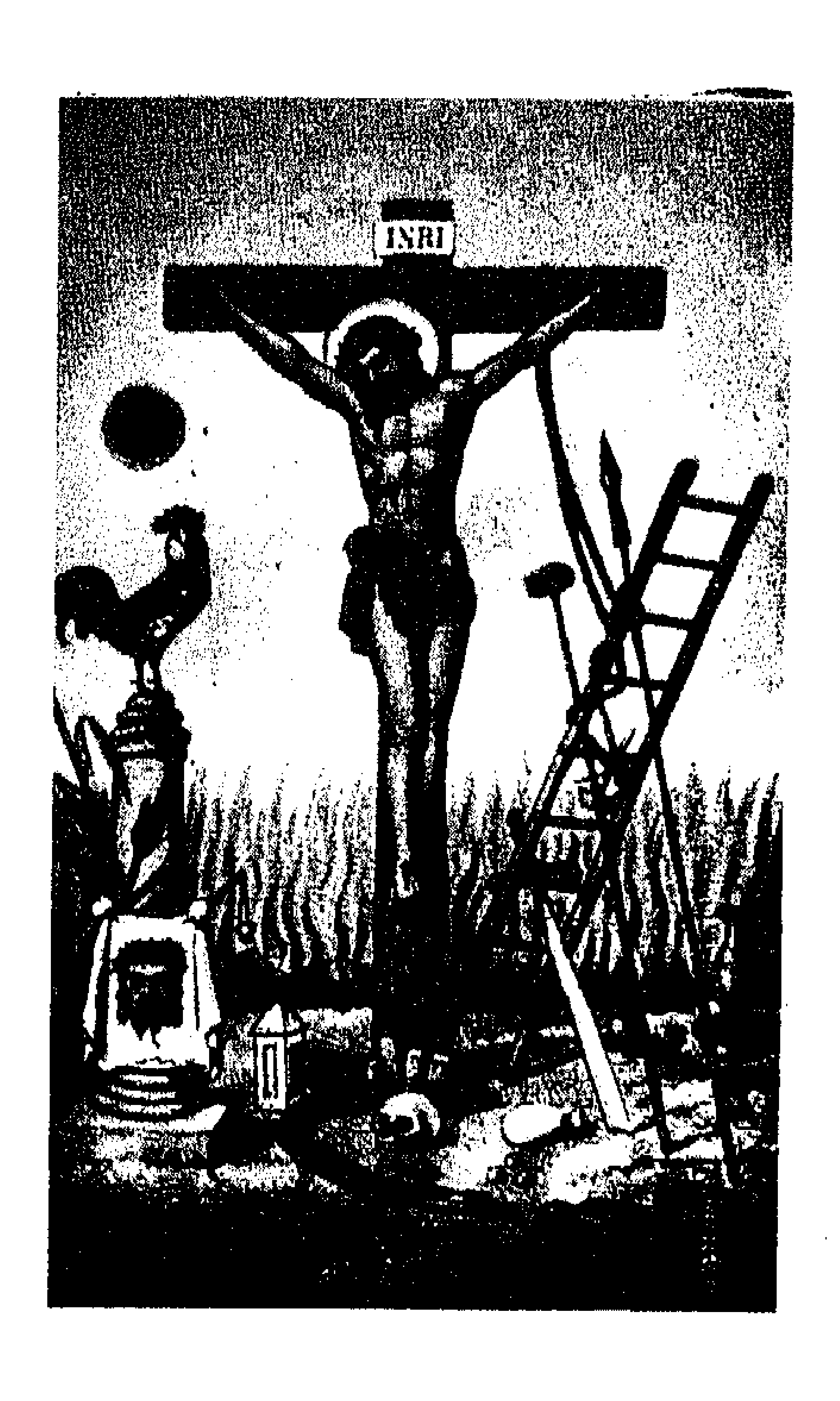
كيف جاءت مصرنا هاربـــة
بيسوع من سيوف الذابحينا

كيف لاقت ابنها المحبوب فى
غمرة الآلام مصـلوبا حزينا

ايه يا عـذراء كم جربت فى
مهجـة الأم فأى النـاس أنت

أنت يـا أمـاه سـر غامض
أنت نبع من حنـان حيث كنت





من ألحان باراباس

أنت لم تنصت الى الحيه بل   أخطأت أمى وأصغت لنداها
أنت لم تقطف من الجنة بل   قطفت أمى حراما من جناها
أنت قدوس طهور بينما   أنا من شرد فى الشر وتاها
أنت عال فى سماء انما   أنا ابن الأرض أصلى من ثراها
أنت رب واله وأنا   عبدك الآثم من يعصى الالها
فلماذا أنت مصلوب هنا   وأنا الخاطىء حر اتباهى
حكمة يا رب لا أدركها   وحنان قد تسامى وتناهى

* * *

عجبا يا رب ماذا قد جرى ... وعلام كرههم فيك علاما
عشت يا مولاى حينا بينهم ... تنزع البغضاء منهم والخصاما
كنت يا قدوس قلبا مشفقا ... فملأت الكون حبا وسلاما
كنت رجلا لكسيح ويدا ... لأشل وأبا بين اليتامى
قد اقمت الميت والأعمى رأى ... والطريح المقعد اشتد وقاما
فلماذا قامت الدنيا على ... شخصك الحانى وزادت فى أذاها
ولماذا أنت مصلوب هنا ... وأنا الخاطىء حر أتباهى
حكمة يا رب لا أدركها ... وحنان قد تسامى وتناهى

* * *

أنا أولى منك بالصلب أنا ... صاحب العار الذى لوث نفسه
أنا من ضيع ويحى يومه ... فى ضلال مثلما ضيع أمسه
أنا من يسعى الى الموت وفى ... نشوة أو سكرة يحفر رمسه
أنا ظمآن تولى مسرعا ... يرتجى الحية أن تملأ كأسه
أيها المصلوب يا من قد رأى ... كل من فى العالم الناكر قدسه
كلما طافت بك العين انزوت ... نفسى الخجلى يغطيها بكاها
فلماذا أنت مصلوب هنا ... وأنا الخاطىء الحر أتباهى
حكمة يا رب لا أدركها ... وحنان قد تسامى وتناهى



نظمت هذه القصيدة سنة ١٩٤٩ .

ونظمت القصيدة التالية سنة ١٩٥٠ .



انا يانجم غريب ههنا

أيها النجم الذى أرشدتنا   منذ أجيال لطفل المذود
انا يا نجم غريب ههنا   وشريد ليس لى من مرشد
قد ضللت الله دهرا لم اجد   ذلك الهادى الذى يهدى يدى
فأرشد القلب الى مزوده   واتركنى فى خشوع العابد
بين املاك بهى شكلهم   ركع حول يسوع سجد

* * *

نحن فى الدنيا ضعاف عزل   لم نجد يا نجم من حصن لنا
غير وعد بمسيح منقذ   يغفر الماضى ويخفى اثمنا
كلما انقادت الينا شهوة   أو غزا طيش الهوى ألبابنا
كلما اشتدت علينا ضربة   وسئمنا ذات يوم حربنا
كلما هبت رياح فاجتثت   زرعنا النامى وهزت غرسنا
يسرع القلب ويشكو صارخا   أيها النجم الذى أرشدتنا

منذ أجيال لطفل المذود

سر بقلبى أيها الهادى ولا تبطىء الخطو اذا اليوم دنا
أنا يا نجم ضعيف خائر ان أولى الناس بالعطف أنا
أنا طفل فى حياة الروح لم يغتن القلب ولا العقل اغتنى
ليس لى حلم ولا رؤيا ولم أستمع صوتا صريحا معلنا
أنا فى الصحراء نبت واهن كلما مرت به الريح انثنى
أنا وحدى حائر بل عاجز أنا يا نجم غريب ههنا
وشريد ليس لى من مرشد

أيها النجم افتقدنى اننى عن حياة الشر يوما لم أحد
كم وعدت الله وعدا حانثا ليتنى من خوف ضعفى لم أعد
أنا عبد الاثم أرضى شهوتى ان أردت الاثم أو ان لم أرد
أنا وحدى وسط أسياف العدا خائف فى وحدتى بل مرتعد
أنا ملقى فى ضلالى ليس من أسقف يرعى ولا من مفتقد
فطريقى فى ظلام دامس قد ضللت الله دهرا لم أجد
ذلك الهادى الذى يهدى يدى

قد سمعنا اليوم عن ميلاد من أدهش الأكوان فى مولده
سر أيا نجم لتهدينا فما أحوج القلب الى مرشده
طف بكل الناس اشفاقا بهم بشر العابد فى معبده
وأيقظ الغافل من غفلته وانهض الراقد من مرقده
واشد بالبشرى نشيدا مفرحا تهرع الدنيا الى منشده
ولد الرب كطفل مثلنا فارشد القلب الى مذوده
واتركنى فى خشوع العابد

كل ما فى الكون اثم سافر أخطأ الكل وزاغوا كلهم
استغلوا فاستكانوا فى رضى ليتنا تدرى الآم ذلهم
قلبهم للشر أضحى مسكنا ولأجل الطيش يفنى مالهم
عبثا يهديهم العقل فقد ضل فى الآثام أيضا عقلهم
فترفق أيها النجم بهم أنت تدرى كيف أمسى حالهم
قم وجمعهم بقلب خالص وسط أملاك بهى شكلهم
خشع حول يسوع سجد



كتبت معظم هذه الابيات من سنة ١٩٤٦ ولم تكمل بعد • وكان كاتبها يود أن تبقى حتى تكتمل ولكن لا بأس من ان تكملها أنت يا أخى القارىء ان أحببت نعمة الرب •

غريبا عشت فى الدنيا   نزيلا مثـــــل آبائى
غريبـا فى أســـاليبى   وأفكـارى وأهـــوائى
غريبـا لم أجد سـمعا   أفـــرغ فيـــه آرائى
يحار النـاس فى ألفى   ولا يدرون ما بائى
يموج القـوم فى هرج   وفى صخب وضوضاء
واقبـع ههنا وحـدى   بقلبى الوادع النائى
غريبـا لم أجـد بيتا   ولا ركنـــا لايوائى

* * *

تركت مفاتن الدنيـا   ولم أحفـل بنـاديها
ورحت أجر ترحالى   بعيـدا عـن ملاهيها
خلى القلب لا أهفـو   لشىء مــن أمانيهـا
نزيه السـمع لا أصغى   الى ضوضاء أهليها
أطوف ههنا وحـدى   سـعيدا فى بواديها



بفيثارى ومزمارى والحـــان أغنيهـا
وساعات مقدسـة خلوت بخالقى فيها

أسير كأننى شبح يمـوج لمقلة الرائى
غريبا عشت فى الدنيـا نزيلا مثـل آبائى

* * *

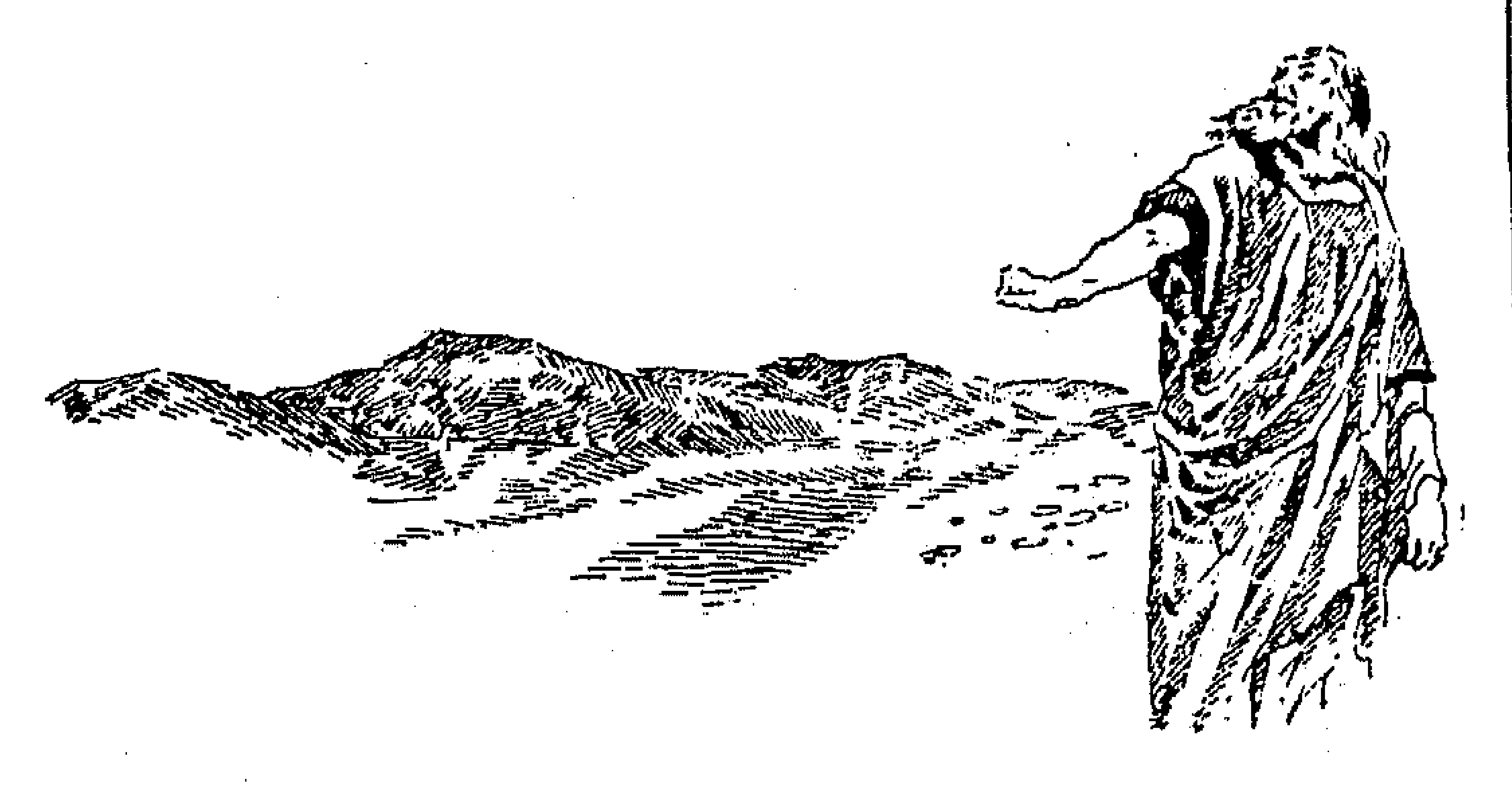
كسبت العمر لاجاه يشـاغلنى ولا مال
ولا بيت يعطلنى ولا صحب ولا آل
هنا فى الدير آيات تعزينى وأمثـــال
هنا الانجيل مصباح ولا يخفيه مكيـال
هنا لاترهب الرهبا ن قضـبان وأغـلال
ولا تلهو بنا الدنيا فادبار واقبـــال

أقول لكل شـيطان يريد الآن اغـرائى
حـذارك اننى أحيا غريبا مثـل آبائى

كتبت هذه القصيدة من اوائل يوليو ١٩٥٤ .

سائح

أنا فى البيداء وحدى — ليس لى شأن بغيرى
لى جحر فى شقوق التل — قد أخفيت جحرى
وسأمضى منه يوما — ساكنا ما لست أدرى
سائحا أجتاز فى الصحراء — من قفر لقفر
ليس لى دير فكل البيد — والآكام ديرى
لا ولا سور فلن ير — تاح للأسوار فكرى
أنا طير هائم فى الجو — لم أشغف بوكر
أنا فى الدنيا طليق — فى أقامتى وسيرى
أنا حر حين أغفو — حين أمشى حين أجرى
وغريب أنا أمر الناس — شىء غير أمرى



الرهبنة وحدة ، وهى درجات :

وكما قال مار اسحق : تبدأ براهب يعيش فى مجمع الرهبان بالمدين الى مبتدىء فى الوحدة ، الى راهب يحتفظ بصمت الأسابيع أى أنه يعتكف فى قلايته طول الأسبوع ، ثم يتقابل مع الرهبان فى قداس الأحد ، تلى ذلك درجة متوحد فى مغارة ، ثم متوحد لا مغارة له ، وهكذا يصل محب الوحدة أخيرا الى درجة سائح · وهذه الأبيات تتحدث عن الدرجة الأخيرة · ننشرها منتظرين أحد الآباء يكملها بخبراته ··



نظمت فى سنة ١٩٥١

قم..!

قم حطم الشـــيطان لا تبـق لدولتـــه بقيـــة
قم بشـــر الموتى وقـــل غفرت لكم تلك الخطيـــة
واغفـــر لبطرس ضـــعفه وامســـح دموع المجدلية
واكشـــف جراحـــك مقنعا تومـــا فريبته قـــوية
وارســـل الينـــا مرقســـا يبنى كنيســـتنا النقيـــة
وهلم واقبـــل ســـيدى واســـكن بيـــوت المرقســـية

* * *

ارفـــع رؤوســـا نكســـت واشـــفق بأجفان البـــكاة
شـــمت الطغـــاة بنـــا فقم واشـــمت بأسلحـــة الطغاة
حســـبوك انســـانا فنيت فلا رجوع ولا نجـــاة
ولأنت انت هو المســـــيح وأنت ينبوع الحيـــاة
قم فى جـــلال المجـــد بل واظهـــر بســـلطان الاله
قم وســـط اجناد الســـماء فأنت رب فى ســـماء
قـــم روع الحـــراس وأبهرهم بطلعتك البهيـــة
قـــم قو ايمـــان الرعـــاة ولم اشـــتات الرعيـــة

* * *

مـــرت علينـــا مـــدة غرباء فى هـــذا الوجود
فتـــرت ضـــمائرنا هنا ولم تقم بعـــد الرقـــود
فالقبـــر ضـــخم فوقـــه حجر ويحرســـه الجنود
يا من اقمت المـــائتين وقمت من بين اللحـــود
يا من قهـــرت الموت يا رب القيـــامة والخلود
قم وانقـــذ الأرواح من قبر الضلالة والخطية
قم قو ايمـــان الرعا ة ولم اشـــتات الرعية

نظمت هذه القصيدة فى المغارة سنة ١٩٦١ .

همسة حب

قلبى الخفاق أضحى مضجعك ... فى حنايا الصدر أخفى موضعك
قد تركت الكون فى ضوضائه ... واعتزلت الكل كى أحيا معك
ليس لى فكر ولا رأى ولا ... شهوة أخرى سوى أن أتبعك
وأبى يعقوب أدرى سره ... قد عرفت الآن كيف صارعك
يا أليف القلب ما أحلاك بل ... أنت عال مرهب ما أروعك
يا قويا ممسكا بالمسوط فى ... كفه والحب يدمى مدمعك
لم يسعك الكون ما أضيقه ... كيف للقلب اذن أن يسعك

* * *

قد تركت الكل ربى ما عداك ... ليس لى فى غربة العمر سواك
ومنعت الفكر عن تجواله ... حيثما أنت فأفكارى هناك
قد نسيت الأهل والأصحاب بل ... قد نسيت النفس أيضا فى هواك
قد نسيت الكل فى حبك يا ... متعة القلب فلا تنس فتاك
ما بعيد أنت عن روحى التى ... فى سكون الصمت تستوحى نداك
فى سماء أنت حقا انما ... كل قلب عاش فى الحب سماك
عرشك الأقدس قلب قد خلا ... من هوى الكل فلا يحوى سواك
هى ذى العين وقد أغمضتها ... عن رؤى الأشياء على أن أراك
وكذا الأذن لقد أخليتها ... من حديث الناس حتى أسمعك
قلبى الخفاق أضحى مضجعك ... فى حنايا الصدر أخفى موضعك

نظمت هذه القصيدة فى أواخر يوليو سنة ١٩٥٤ .

فى جنة عدن

(المنظر الأول) آدم وحواء يسبحان الله فى الجنة

آدم (يغنى) : تعالى الله مولانا — وبورك حيثما كانا
يحب الهنا قلبى
حواء : — يحب الله قلبانا
آدم يكمل : وربى مصدر الحب — كما تهواه يهوانا
ملأنا الجو تمجيدا — وترتيلا وألحانا
ملاك : الهى زده تسبيحا
ملاك آخر : — الهى زده ايمانا
آدم فى حماس : أنا من فيض رحمته — تراب صرت انسانا
حقيرا كنت فى الأرض — وكنت أداس أحيانا
وهانذا وقد صرت — على الفردوس سلطانا
أرى فى جنتى شجرا — من الأثمار ملآنا
وأطيارا مغردة — وأزهارا وريحانا
ويجرى الماء من حولى — ينابيعا وغدرانا
آدم وحواء : تعالى الله باركنا — وأعطانا فأغنانا
(يرى آدم فهدا راقدا فيقول له)
تنشط أيها الفهد — وسر فى الأرض نشوانا
وقل يا صاحبى معنا — تعالى الله مولانا
(الفهد يسير مغنيا معهما) :
تعالى الله مولانا — وبورك حيثما كانا

(يتحمس آدم فيقول لأسد فى الطريق) :

وقم يا أيها الأســد وصبح بالصوت رنانا
وســبح ربنا العــالى وردد لحــن نجـوانا
وقل يا صاحبى أيضا تعــالى الله مولانا

(الأسد يسير مغنيا معهم) :

تعــالى الله مولانا وبورك حيثمــا كانا

(تزيد الحماسة بآدم وتأخذه روعة النشيد فيقف هاتفا) :

هلمى دولــة الوحش ذرافات ووحــــدانا
وهيا ساكنى الأبحار أســماكا وحيتــانا
وقومى جنــة الفردوس أطيــارا وأغصــانا
هلمى كلنــا نشــدو تعــالى الله مولانا

(يسمع صوتهم جميعا وهم يسيرون فى موكب حافل يردد) :

تعــالى الله مولانا وبورك حيثمــا كانا
ملأنا الجو تمجيــدا وترتيــلا وألحــانا

(الحية فى غيظ): كفاكم أيها الشادون ما تلقون من لحــن
تملك آدم فيــــكم وليس مفضــلا عنى
أنا الجبــارة العظمى أنا ســلطانة الجن
لسوف ترون من مكرى وسوف ترون من فنى

المنظر الثـانى

(الحية تدخل الجنة وتتملق حواء وتظل بها حتى تسقطها هى وآدم)

الحية لحواء: ســلام القلب يا أبهى عروس قد رأينــاها
وحبا أعظم الجارات ســلطانا وأسـناها
حـــــواء : صباح الخير أذكاها على علــم وأدهاها
ســلام الله من نالت من الأذهــان أذكاها

(الحية متظاهرة بالتواضع)

حنو منك مولاتى وروح لست أنساها
أنا فى الحق لا أسمو لأفتح ها هنا فاها
أمامك تخشع الأفهام أرقاها وأسناها
وأعقل عاقل يصغى اليك يقول طوباها

(تقتادها الى الجنة وهى تقول) :

تعالى ندرس الأثمار كى ندرى خباياها

(تشرح لها الأشجار حتى تصل الى شجرة معرفة الخير والشر فتقول) :

وهذى وحدها حملت من الأسماء أبهاها

حواء : تعالى الله بارئنا هو القدوس سماها
الحية : أحقا قال مولانا « حذار – لا تمساها »
(آدم يقترب) : تماما

(الحية فى دهشة) كيف واعجبى أحقا أنت تخشاها
حواء سنأكل مثلما شئنا من الأثمار الاها
الحية : لماذا ؟
حواء : تلك اقوال لربى قد حفظناها
آدم : سنهلك ان عصيناه ونفنى ان اكلناها

(الحية فى لهجة الواثق العالم بخبايا الأمور ، تقول باسمة فى خبث) :

محال ان يميتكما وأنتم منتهى جهده
بل القدوس فى سر وأعرف مختفى قصده
نهاكم مشفقا منكم على سلطانه وحده

(تنظر اليها حواء فى استغراب واستفهام ، فتجيب الحية فى اغراء) :

تصـــــــيران الهين   نظير الله فى مجده !

(ملاك يقول فى انذار) :

أوعيـد من الهـــى   أم من الحيـة وعـد
ليس مجـدا بل هـلاك   كيف فى العصيان مجد ؟

(الحية لحواء) : هذه النبتة يا حـــواء لو جربت شـهد
نبتة فيها جـلال العـلم بل خلـد معـد

(حواء تنظر الى الشجرة فاذا هى بهجة للعيون وجيدة للأكل فتقطف وتأكل وتعطى رجلها فيأكل معها)

(بينما الحيـة تقول فى شـماتة وفرح) :

سقط الجبـار ، أين العدل يا رب الحساب ؟
واسـتحق المـوت مهمـا ترك الشر وتاب .

(وتوجه كلامها لآدم) :

لست شـبه الله يا آدم   بـل أنت تــراب
ويح سلطانك فى الجنة   قـد ولى وغـاب
ليس مجـد لأثيم   بـل هلاك بـل عذاب
سـوف تحيا فى شقاء   وامتهـان واكتئـاب
وستبقى تحت سلطانى   الى يـوم المـآب

(وتضحك ضحكتها الشيطانية وتجرى عابثة فى أرجاء الجنة)



نظمت هذه القصيدة سنة ١٩٦١ فى المغارة ٠

تائه فى غربة

يا صديقى لست أدرى ما انا		أو تدرى أنت ما أنت هنا ؟
أنت مثـــلى تائه فى غربة		وجميع النـاس أيضـا مثلنا
نحن ضـيفان نقضى فترة		ثم نمضى حين يأتى يومنا
عاش آباؤنا قبـلا حقبـة		ثم ولى بعـــدها آباؤنا

* * *

قد دخلت الكون عريانا فـلا		قنية أملك فيـــه أو غنى
وسأمضى عاريا عن كل ما		جمـع العقـل بجهـل واقتنى
عجبا هـل بعـد هذا نشتهى		مسكنا فى الأرض أو مستوطنا ؟!

* * *

غرنا الوهم ومن أحـــلامه		قد سكرنا وأضعنا أمسنا
ليتنا نصحو ويصفو قلبنا		قبلما نمضى ، وتبقى « ليتنا »

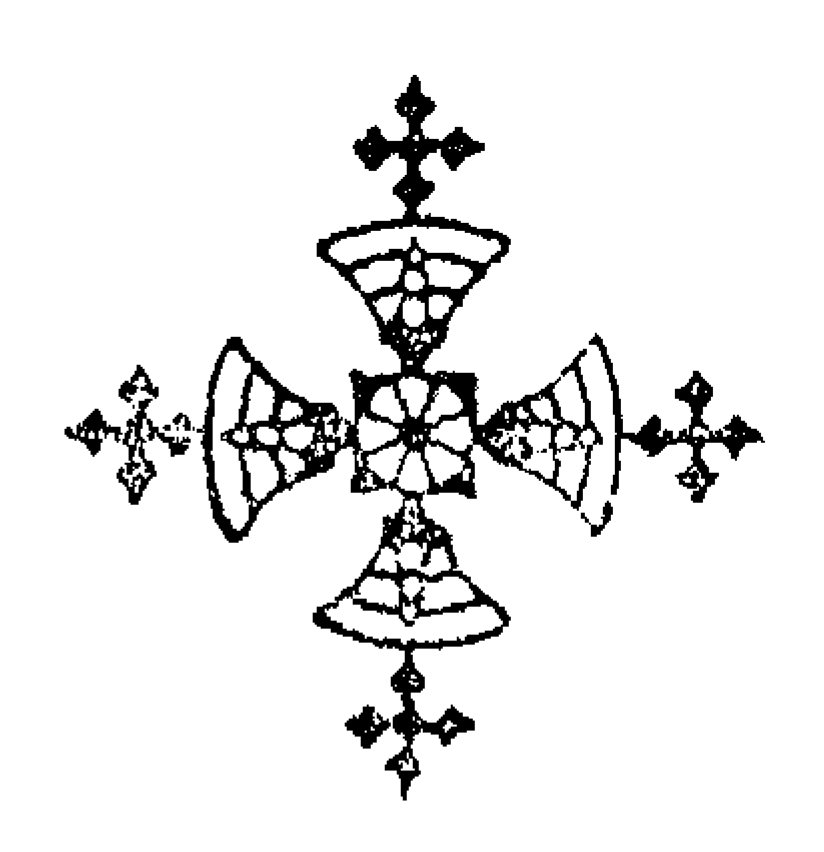
* * *

لست أدرى كيف نمضى أو متى		كل ما أدريه أنا سوف نمضى
فى طريق الموت نجـرى كلنا		فى سباق ، بعضنا فى اثر بعض
كبخـــار مضـمحل عمرنا		مثل برق سوف يمضى ، مثل ومض
يا صديقى كن كما شئت اذن		وأجر فى الآفاق من طول لعرض
أرض آمالك فى الألقاب أو		أرضها فى المال ، أو فى المجد أرض
وأغمض العين وحلق حالما		ضيع الأيام فى الأحلام واقضى
آخر الأمر ستهوى مجهـدا		راقدا فى بعض أشبار بأرض

يهـدأ القلب وتبقى صـــامتا   لم يعد فى القلب من خفق ونبض
ما ضجيج الأمس فى القلب اذن؟   أين بركانه من حب وبغض ؟

* * *

قل لمن يبنى بيوتـا ههنـا :   أيها الضيف ، لماذا أنت تبنى ؟
قل لمن يزرع أشواكا ، كفى   هو نفس الشوك أيضا سوف تجنى
قل لمن غنى على الاهواء هل   فى مجىء الموت أيضا ستغنى ؟!
قل لمن يرفع رأسـا شـامخا   فى اعتزاز، فى افتخار، فى تجن :
خفض الرأس وسر فى خشية   مثلما ترفع رأسا سوف تحنى
قل لمن يعلو ويجرى سـابقا   يا صديقى قف قليلا وانتظرنى
نحن صـــنوان يسيران معا   أنا فى حضنك، مل أيضا لحضنى
قل لمن يعتز بالألقـاب ان   صاح فى فخره «من أعظم منى؟!»
نحن فى الأصـــل تراب تافه   هل سينسى أصله من قال انى ٠٠؟!



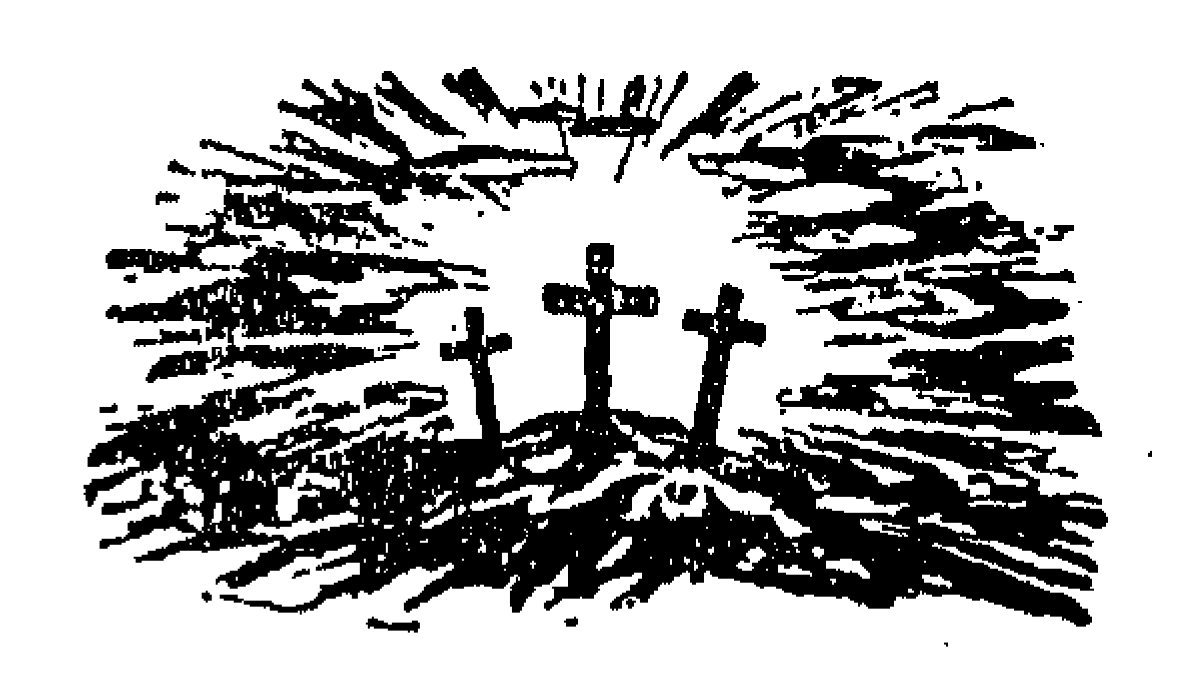
كيف أنسى !؟

نظمت هذه القصيدة سنة ١٩٦٢ .

سوف أنسى الأمس واليوم وقد أنسى غدا
وسأنسى فترة فى العمر قد ضاعت سدى
غير أنى سوف لا أنسى سؤالا واحدا
حين قال القلب يوما فى ارتباك : كيف أنسى

كيف أنسى فترة الطيش وآثام الصبا
حين كان القلب رخوا كلما قام كبا
أسكرته خمرة الاثم فنادى طالبا
كلما يشرب كأسا يملأ الشيطان كأسا

كم دعانى الرب يوما فأشحت الوجه عنه
وأرانى قلبه الحانى أنا الهارب منه
قال كن صدرا لقلبى غير أنى لم أكنه
كان قلبى فى صدودى مثل صخر ، كان أقسى



قال هل تحضر يا صاحب عرسى ، فاعتذرت
فأعاد القول فى رفق وعطف ، فضجرت
فتولى بعد أن قال انتظرنى ، ما انتظرت
لم تكن فى القلب أشواق لكى أحضر عرسا

كجحيم ذلك الماضى ، كشيطان مريع
قائم ضدى فى صحوى وأيضا فى هجوعى
كم مضى الليل وقد بللت فرشى بدموعى
ايه يا ظلمة نفسى ، هل ترى أبصر شمسا

قرأ الكاهن حلا فوق رأسى ، فاسترحت
قال لى هيا اصطلح بالرب هيا ، فاصطلحت
قلت أنسى الأمس لكن صرخ العقل فصحت
حسن يا قلب أن أنسى ولكن ، كيف أنسى ؟

كيف أنسى فترة الطيش وآثام الصبا
كيف أنسى الرب مصلوبا وقلبى صالبا

أبيات عن :

شمشون وهو يجرّ الطاحون

أنا الجبار أم شبحى   أنا شمشون أم غيرى
إذا ما كنت شمشونا   فأين جلالة القدرِ ؟!
وأين كرامة القاضى   وأين نباهة الذكر
وأين اللحى فى كفى   وجيشٌ هاربٌ يجرى
وأين النور من عينىْ   وأين الطول من شعرى

حنانك يارحى الطاحون   هل تدرين ما سرّى
أجيبى إننى مصغٍ   فقد حُيّرت فى أمرى
أنا الجبار أم شبحى   أنا شمشون أم غيرى

وأبيات عن : مريم ومرثا

(تؤخذ بطريقة رمزية عن حياة التأمل وحياة الخدمة)

دخلت البيت لا مرثا   بساحته ولا مريمْ
فَمَنْ للرب فى البيتِ   وكيف إذا أتى يُخدمْ
ومَنْ يهفو لمقدمهِ   ومَنْ يجرى ومَنْ يبسمْ
ومَنْ يرنو لطلعتهِ   ومَنْ يصغى ومَنْ يفهمْ
ومَنْ بكلامه يشدو   طوال الليل أو يحلمْ ؟

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

مقالات

قصائد

صفحة






هذا الكتاب الذى بين يديك هو أقدم كتاب نُشر لى .

حينما صدر سنة ١٩٥٧ لم أقدمه للناس ، إنما هو الذى قدمنى لهم .

بل حينما نشرته كمقالات فى مجلة مدارس الأحد منذ سنة ١٩٥١ ما كنت أظن أنه سيصدر ككتاب ، وما كنت أظن مطلقاً أن بعض أشعاره ستُلَحن وتصبح ترانيم ...

وضعت مقالاته تحت عنوان [إنطلاق الروح] ، وأعنى إنطلاقها من كل ما يعوق حريتها وتقدمها نحو الله . وقد أضيفت إليها بعض قصائد كتبتها وأنا علمانى ، وأخرى كتبتها وأنا راهب قبل سيامتى أسقفاً ، مع مقدمتين للكتاب كتبتهما حديثاً .

وأنا أقرأ هذه الكلمات مثلك ، فاقرأ مشاعرى منذ عشرات السنين .

البابا شنوده الثالث





ثمن ١١[illegible] قرشاً